خواطرُ في

التَزكيةِ وِالسُلوكِ

لفضيلة الشيخ

حارث النظاري

-رحمه الله-

١٤٤٦هـ - ٢٠٢٤ م

خواطر في

التزكية والسلوك

لفضيلة الشيخ

حارث النظاري -رحمه الله-

الطبعة الأولى

١٤٤٦ هـ - ٢٠٢٤ م

بسم الله الرحمن الرحيم

تنويه: هذا الكتاب هو في أصله حلقات صوتية.

لا تنسونا من صالح الدعاء..

ليلة الأربعاء، ٦ ربيع الثاني، ١٤٤٦ هـ. (٩ أكتوبر ٢٠٢٤ م)

الخاطرة الأولى:
-أول الخطوات-

الحمد لله رب العالمين، اللهم لك الحمد كما ينبغي لجلال وجهك وعظيم سلطانك، اللهم صلِّ على محمدٍ وعلى آل محمد، كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم، وبارك على محمدٍ وعلى آل محمد، كما باركت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم، في العالمين إنك حميد مجيد، أما بعد:

قال الله تبارك وتعالى: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾.[الحديد]

هذا عتابٌ من الله تبارك وتعالى للمؤمنين، أيها المؤمن أما آن لقلبك أن يخشع؟! هذه الآية إيقاظٌ وتنبيه للمؤمن، ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ﴾ إيقاظ وتنبيه وتحذير للمؤمن أن يقع فيما وقع فيه حملة الكتاب من الأمم السابقة.

﴿وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾، احذر أيُّها المؤمن أن يطول عليك الأمد ويقسو قلبك، ففي هذه الآية إيقاظ للمؤمن الذي قد تطرأ عليه الغفلة مع طول الأمد، فهي إيقاظ من سهو، وتنبيه من غفلة.

والمؤمن قد تصيبه الغفلة والغفوة، ولكن المؤمن سرعان ما يستيقظ عند التنبيه، قال الله تبارك وتعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْاْ إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ﴾[الأعراف] فالمؤمن قد يغفل ويسهو ويحتاج إلى إيقاظ، وقوة الإيقاظ على قوة الغفلة، فكلما اشتدت الغفلة احتاج التنبيه إلى إيقاظ شديد، وإلى شدة إزعاج حتى يحصل الانتباه.

وقد قال الإمام الهروي –رحمه الله– في [المنازل] عن اليقظة، قال: "هي انزعاج القلب لروعة الانتباه من رقدة الغافلين". فشبّه الغفلة بالرقاد والنوم، والاستيقاظ عملية انزعاج للقلب حتى يحصل الانتباه، فإذا كان الإنسان في نوم، لا بد من شيء مزعج له حتى يخرجه من هذا النوم ومن هذه الغفلة، وكذلك إذا كان في غفلة في الإيمان، فالمؤمن قد تصيبه الغفلة والغفوة.

ولا ينبغي لأحد أن يزكِّي نفسه ويمدحها ويثني عليها ويقول أنا ليس عندي غفلة، أنا تامُّ اليقظة والانتباه، هذا القول –بتزكية النفس ومدحها– دليلٌ على تمكُّن الغفلة من القلب، قال ابن القيم –رحمه الله– في الفوائد: "لا بد من سِنة الغفلة ورقاد الغفلة، ولكن كن خفيف النوم".

بل إن عمر بن الخطاب –رضي الله عنه– عدّ الراحة للرجال غفلة كما ذكر ذلك الماوردي في [أدب الدنيا والدين].

القصد: أن الإنسان تصيبه الغفلة ويذنب ويخطئ، وكل هذا من النسيان والغفلة.

والذنب والخطأ له أثر على القلب، يصيبها بأغشية ويصيبها بأغلفة، قال ابن القيم –رحمه الله– وهو يتحدث عن أغشية القلب وأغلفته، قسَّم أغشية القلب إلى ثلاثة –التي تصيب المسلم، ليس الكافر المختوم على قلبه والمطبوع على قلبه، الكلام عن المسلم الذي تصيب قلبه أغلفة، فعدَّ منها ثلاثة–:

الأول: الغين. قال: الغين يغشى القلب وهو أرق الحجب.

ثم الغيم: وهو أغلظ منه.

ثم الران: وهو أشد منه.

ثم ذكر ابن القيم –رحمه الله– أن الغين –هذا الغشاء الخفيف– قد يقع على الأنبياء، واستدل بما رواه الإمام مسلم عن الأغرِّ المزني –رضي الله عنه– قال: قال –رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم–: ((إنَّه ليُغان على قلبي وإنِّي لأستغفر الله في اليوم مائة مرة)).

ما معنى يُغان على قلبه –صلى الله عليه وآله وسلم–؟

ذكر ابن الأثير –رحمه الله– في [النهاية في غريب الحديث] معنى ذلك، فيقول كلامًا ملخَّصه: أن النبي –صلى الله عليه وآله وسلم– قلبه مشغولٌ بالله تبارك وتعالى دائمًا، فإذا أصابه عارض لما يشغله من أمور الدنيا في مصلحة الأمة، عدَّ ذلك الأمر ذنبًا وتقصيرًا، فيفزع النبي –صلى الله عليه وآله وسلم– للاستغفار من انشغال قلبه بأمور من أمور الدنيا لمصالح المسلمين.

القصد: ذكر ابن القيم –رحمه الله– أن الأغلفة ثلاثة: الغين، قال: ويقع على الأنبياء –صلوات الله وسلامه عليهم–. والثاني: الغيم: ويكون للمؤمنين. والثالث: الرَّان: وهو لمن غلبت عليه الشِّقوة.

قال تبارك وتعالى: ﴿كَلَّاۖ بَلْۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾.[المطففين]

ذكر ابن عباس –رضي الله عنه– تفسير الرَّان أو سبب وقوع الرَّان على القلب، فقال –رحمه الله–: هو الذنب بعد الذنب يغطِّي القلب حتى يصير عليه كالرَّان.

فذكر ابن عباس –رضي الله عنه– أن توالي الذنوب على القلب تغلِّفه حتى يصير عليه كالرَّان.

القصد: أن الغلفة تصيب المؤمن، وأول الخطوات في إصلاح القلب هي اليقظة، وهي أول منازل العبودية كما أقرَّ ذلك ابن القيم –رحمه الله– في مدارج السالكين.

ولكن الخطورة: أن يكون العبد في غفلة وهو لا يدري أنه غافل، فيفوته خيرٌ كثير!

ذكر ابن القيم -رحمه الله- في مدارج السالكين أنواعًا من الغفلة تصيب المؤمن السائر إلى الله تبارك وتعالى، فذكر -رحمه الله- أن المجهول لنا من الحق أشياء كثيرة، علمت شيئًا وغابت عنك أشياء، فكثير من أمور الخير والصلاح والهداية لا نعلمها، نعلم شيئًا قليلاً ويفوتنا أشياء كثيرة، ثم هذا الشيء القليل الذي لدينا من العلم والهداية -الشيء القليل هذا الذي نعلمه- لنا معه إما كسل، وإما عدم قدرة في بعضه، فهناك أشياء كثيرة من التي نعلمها من الهدى والخير نتركها تكاسلاً وتهاونًا، مثل كثير من السنن والنوافل وأعمال الخير، نتركها تكاسلاً أو تهاونًا، وأشياء أخرى من أمور الخير والصلاح والعبادة نعرفها ونريدها، لكننا لا نستطيع أن نفعلها، مثل بعض العبادات قد تكون غير متيسرة في أحوال، فنريد أن نفعلها ولكن لا نستطيع، فهذا صنف. ثم شيء آخر من أمور الخير والصلاح والهداية نعرفه إجمالاً ولا نعرف تفصيله ولم نهتدِ لتفصيله، وكل هذا من الغفلة.

كوننا نعرف أن هذا الأمر من الخير والصلاح، ثم أكسل عنه؛ هذه غفلة، وكوني أن أعلم بأني جاهل بأشياء كثيرة من الخير ولا أسعى في تحصيل العلم لها؛ هذه كذلك غفلة، وكوني أني أعلم إجمال العبادات أو إجمال الطاعة من غير أن أهتدي لتفصيلها؛ هذه أيضًا غفلة تحتاج إلى استيقاظ، تحتاج إلى يقظة، تحتاج إلى انتباه، تحتاج إلى صدق رغبة في السير إلى الله تبارك وتعالى.

الرضا عن النفس.. أسبابه وعلاجه:

ونحن في حالنا هذه -في سيرنا إلى الله تبارك وتعالى- رضانا بما نحن فيه يُفوِّت علينا درجات من القرب إلى الله تبارك وتعالى عظيمة، أضعناها بغفلتنا، لا نسعى إليها، هذه الغفلة لها أسباب ولكن أعظم هذه الأسباب -والله أعلم- هو الرضا عن النفس.

والرضا عن النفس داءٌ تكلم عنه العلماء من قديم الزمان، قال ابن الجوزي –رحمه الله– في [صيد الخاطر] : "المصيبة العظمى رضا الإنسان عن نفسه، واقتناعه بعلمه، وهذه محنةٌ قد عمَّت أكثر الخلق، وقديمًا قالوا في الحِكَم أصل كل معصية وغفلة وشهوة الرضا عن النفس، وأصل كل يقظة عدم الرضا عنها، ولئن تصاحب جاهلًا لا يرضى عن نفسه خيرٌ لك من أن تصحب عالمًا يرضى عن نفسه".

إذن هذه المشكلة هي رضا الإنسان عن نفسه، يرى نفسه في أحسن حال، فإذا رأى نفسه في أحسن حال كيف سينهض للتغيير؟ كيف سيبدل من حاله؟ كيف سيتقدم إلى الله تبارك وتعالى ويرتقي في معارج القبول إليه؟!

هذه المشكلة –وهي الرضا عن النفس– ما أسبابها؟

السبب الأول من أسباب الرضا عن النفس: المقارنة بمن ظاهره أسوأ حالًا، أن أنظر إلى حالي وأنظر إلى من حولي فأرى أني أفضل منهم، وأن حالهم أسوأ مني، وقالوا قديمًا: ربما أراك الإحسان منك صحبتك من هو أسوأ حالًا منك.

فإذا تلفَّتُّ يمينًا ويسارًا ورأيت من هو أقل حالًا مني، أورث ذلك في قلبي رضًا عن حالي وعن نفسي.

ما العلاج لهذه المشكلة؟

العلاج والدواء: ((طوبى لمن شغله عيبه عن عيوب الناس)).

أنت ترى الناس أو ترى الآخرين أنهم أسوء حالًا منك، وما يدريك؟! لديك من ذنوب القلوب ما هو أعظم من بعض المعاصي الظاهرة، لدينا ذنوب وآثام كثيرة لا نقدِّرها، ما لدي من الكِبر والعُجب والرياء أعظم مما لدى الآخرين من بعض السلوك الذي لا أحبه، وإن أصغر ذنوبك سيكون أعظم عليك يوم القيامة من أعظم ذنبٍ اقترفه غيرك.

إذن لديك ذنوب ومعاصي، أنت لا تعرف عن الناس، لا تعرف ما في قلوبهم، لا تعرف ما في سلوكهم، قد يظهر من بعضهم بعض السلوك أو بعض الآثام لكن في قلوبهم من الإيمان ما هو أعظم مما في قلبك، قد يكون لديهم استغفار وتوبة وإنابة لا تعلم عنها، هذا أولًا.

ثانيًا: القدوة هو النبي –صلى الله عليه وآله وسلم–، فالميزان الذي أزن به أعمالي وخلقي وسلوكي ليست البيئة التي أنا فيها، وإنما هو النبي –صلى الله عليه وآله وسلم–، فأخلاقه –صلى الله عليه وآله وسلم– وعباداته وسلوكه ومعاملاته –صلوات الله وسلامه عليه– هي الميزان الذي أزن به حالي، والذي أزن به سلوكي وعبادتي، أَنْظر كيف كانت عبادة النبي –صلى الله عليه وآله وسلم–، كيف كان طُهر قلب النبي –صلى الله عليه وآله وسلم–، كيف كان إيمانه، كيف كانت مناجاته لله تبارك وتعالى، كيف كان يقينه، كيف كان سلوكه ومعاملته..

هذا هو الميزان الذي أزن به حالي، هو ميزان الشرع، النبي –صلى الله عليه وآله وسلم–، عبادته، سلوكه، أخلاقه، تعامله، هذا هو الميزان الحق.

إذن السبب الأول من أسباب الرضا عن النفس هو المقارنة بمن ظاهره أسوء حالًا.

السبب الثاني في ما يجعل الشخص يرضى عن نفسه: هو ثناء الخلق، أن يُثني عليّ الناس، يذكروني بخير، يمدحونني، وهذا سبب مهم من أسباب الرضا عن النفس.

ما هو الدواء؟ وما هو العلاج؟

أنت أَعْرَف بنفسك، مَن أثنى عليك إنما أثنى على جميل ستر الله عليك، لديك من الآثام الكثيرة، ومن العيوب الكثيرة، ومن الخطايا، ولكن الله تبارك وتعالى أسبل عليك ستره،

فالناظر إليك إنما ينظر إلى جمال ستر الله عليك، ولو كُشِف له الستر لرأى أمرًا عَجَبًا، وكل إنسان منا يعرف حال نفسه ويعرف عيوبه ويعرف خطاياه.

ورحم الله القحطاني في النونية عندما قال:

واللهِ لو علموا قبيحَ سريرتي	لأبى السلامَ عليَّ من يلقاني
ولأعرضوا عني وملُّوا صُحبتي	ولبؤتُ بعد كرامةٍ بهوانِ
لكن سترتَ معايبي ومثالبي	وحلمتَ عن سقطي وعن
فلك المحامدُ والمدائحُ كلُّها	بخواطري وجوارحي ولساني

هذا الأمر الأول، أنت أَعْرَف بنفسك، ومن أثنى عليك إنما أثنى على جميل ستر الله عليك، فلا تغتر بجميل ستر الله عليك، ولكن كن ذامًا لنفسك بقدر ما تعلم منها من سوء، واشكر الله تبارك وتعالى على جميل الستر.

الأمر الثاني في علاج الاغترار بثناء الناس: هو أن الثناء الحقيقي للعبد هو في السماء.

ما اسمك في السماء؟ ما صفتك في السماء؟

((إنَّ الرجل ليصدق ويتحرَّى الصدق حتى يُكتب عند الله صدِّيقًا، وإنَّ الرجل ليكذب ويتحرَّى الكذب حتى يُكتب عند الله كذَّابًا))، فبئس الرجل من دُعي في الأرض مخلصًا، وهو عند الله تبارك وتعالى من المرائين -والعياذ بالله-، أو أن يُدعى في الأرض متواضع وكريم وشجاع، وهو عند الله تبارك وتعالى منافق أو خائن أو كاذب أو فاجر -والعياذ بالله-، فلا نهتم كثيرًا بمدح الناس، وإنما نبحث في المكانة عند الله تبارك وتعالى، ثناء الناس لا يُغني عني شيئًا إن كنت عند الله مذمومًا -والعياذ بالله-..

فالهم كل الهم أن أكون عند الله تبارك وتعالى مرضيًا، أن أكون عند الله تبارك وتعالى مُقرّبًا.

هذا السبب الثاني من أسباب الرضا عن النفس.

السبب الأول: المقارنة بمن ظاهره أسوء حالًا، السبب الثاني: الاغترار بثناء الخلق.

السبب الثالث من أسباب الرضا عن النفس هو: استكثار الطاعة، أن يفعل الإنسان طاعةً ويراها عظيمة، يعمل عبادات ويرى أنه في خير، وأن هذه العبادات لا يقوم بها أحد، وأنه بذل مجهودًا كبيرًا، وأنه فعل وفعل وفعل.. فيحصل عنده استعظامٌ لهذه الطاعة، فإذا رأى الطاعة عظيمة رضي عن نفسه، ورأى أنه أحسن حالًا من كثيرٍ من الناس.

الدواء والعلاج: هو تعظيم الله واستقلال الطاعة.

أولًا: الله تبارك وتعالى هو الذي يمنُّ عليك بالطاعة، هو الذي وفقك للطاعة، هو الذي يسَّرك لفعل الخير، هو الذي هداك تبارك وتعالى ﴿بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ﴾[الحجرات]، ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ﴾[النحل].

فالإسلام والإيمان والطاعة والصلاح والخير والعبادة والجهاد والتضحية، كل هذه عبادات، وهي نعم أنعم الله تبارك وتعالى بها علينا، يسَّرها لنا، امتن الله تبارك وتعالى علينا أن نكون من أهلها، ولو شاء ربي تبارك وتعالى لصرفنا عنها كما صرف كثيرًا من الخلق، فالمنَّة لله وحده، اللهم لك الحمد..

إذن الله يمنُّ علينا بالطاعة، فالطاعة هي مِنَّة من الله تبارك وتعالى، ونحمده تبارك وتعالى أن استعملنا في طاعته ووفقنا لمرضاته، فالفضل كله لله تبارك وتعالى، هذا أولًا.

ثانيًا: نعم فعلت هذه الطاعة وبذلت مجهودًا فيها، ولكن هل قُبِلت؟ أما تخشى أن تكون ممن قال الله فيهم: ﴿عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ ۝ تَصْلَىٰ نَارًا حَامِيَةً﴾[الغاشية]؟

نعم نفعل كثيرًا من الطاعات لكن هل حققنا فيها الإخلاص؟ هل كان فيها الخشوع؟ هل كان فيها الإخبات لله تبارك وتعالى؟ هذه أمور مهمة لا بد من معرفتها ومراقبتها، نعم عملنا الطاعة، ولكننا نرجو أن يقبلها الله تبارك وتعالى، فابتداءً المِنَّة من الله تبارك وتعالى علينا بأن فعلنا الطاعة، ثم المِنَّة من الله تبارك وتعالى علينا أن يقبلها، فأنا لا أدري هل قُبِلت الطاعة أم لم تُقبل.

ثالثًا: مَنْ المستفيد من الطاعة؟

الله سبحانه وتعالى هو الغنيُّ، وإنما المستفيد من الطاعة -هي لي، طاعتي- أنا المستفيد منها، كما في الحديث القدسي: ((يا عبادي إنَّما هي أعمالكم أُحصيها عليكم))، فالثمرة هي لي، أنا المستفيد، الله تبارك وتعالى غنيٌّ عن العالمين جميعًا وعن عبادتنا جميعًا، فالمستفيد من الطاعة هو أنا، فاستكثاري للطاعة هو استكثاري على نفسي، فإذا استعظمت شيئًا فإنما استعظمته على نفسي، وهذا من القصور ومن الخطأ.

إذن العلاج لاستكثار الطاعة: تذكُّر أن الله تبارك وتعالى هو الذي منَّ علي بهذه الطاعة، وأنه تبارك وتعالى هو الذي يمنُّ عليَّ بقبولها، ثم ثالثًا أنا المستفيد بها: ((يا عبادي إنّكم لن تبلغوا نفعي فتنفعوني، ولن تبلغوا ضرِّي فتضروني))، كما في الحديث القدسي -أيضًا-: ((إنَّما هي أعمالكم أُحصيها عليكم)).

الأمر الرابع والأخير من أسباب الرضا عن النفس: استصغار المعصية؛ أن نفعل المعصية ونراها صغيرة، ونفعل الطاعة ونراها بأنها عظيمة. ما العلاج لهذا الأمر؟

العلاج لهذا الأمر: هو استعظام المعصية وتعظيم الجناية، وأن هذه المعصية هي جريمة كبيرة، وإسراف على النفس، وخطأ.. خطأ في حقِّ مَنْ؟

إنها خطأ في حقِّ الله تبارك وتعالى، فلا بد من تعظيم الله تبارك وتعالى، وكما قيل: لا تنظر إلى صغر المعصية، ولكن انظر إلى عظمة من عصيت.

روى أبو نعيم الأصبهاني في [حلية الأولياء] عن ابن السمَّاك أنه كتب إلى أخٍ له يوصيه، قال: "أما بعد، أوصيك بتقوى الله الذي هو نجيُّك في سريرتك، ورقيبك في علانيتك، فاجعل الله في بالك على كل حالك في ليلك ونهارك، وأحبّ الله بقدر قربه منك، وقدرته عليك، واعلم أنك بعينه ليس تخرج من سلطانه إلى سلطان غيره، ولا من ملكه إلى ملك غيره، فليعظم منه حذرك، وليكثر منه وجلك".

واعلم أن الذنب من العاقل أعظم من الذنب من الأحمق، والذنب من العالم أعظم من الذنب من الجاهل.

تعظيم الجناية بتعظيم الله تبارك وتعالى..

الأمر الثاني في تعظيم الجناية وتعظيم الجريمة -وهي المعصية-: هو التصديق بالجزاء؛ أن يرى الآثام التي يقترفها إنما هي أحطاب أصلى بها في نار جهنم.. يعني إذا جاءتني معصية أو رغبة في مخالفة الأمر الشرعي أنظر إلى هذه المعصية على أنها أحطاب جهنم، وأنها عذاب الجحيم، فكلما استزدت من هذه الآثام إنما أستزيد من وقودٍ في نار جهنم -والعياذ بالله-، فالنظر إلى المعصية على أنها عذاب وعقاب وجحيم ونار وسعير -والعياذ بالله تبارك وتعالى- .

الخاطرة الثانية
-صفحة جديدة-

الحديث بصراحة.. أحيانًا في سلوكنا مع الله تبارك وتعالى في عبادتنا، في الحياة، نشعر أن هناك خلل، هناك شيء غير صحيح، أمور لا تجعلني أشعر بالعبادة وثمرة العبادة، لا تجعلني أشعر بالقرب من الله تبارك وتعالى، حتى وأنا أمارس العبادات، وأنا أسير إلى الله تبارك وتعالى في عبادات مختلفة من الصلاة والذكر والجهاد والرباط وكثير من العبادات، إلا أنه يبقى هناك شيء يسبب جفوة، يسبب قلق.. هذا الأمر أشعر أنه مانع أو مضعف لثمرة العبادات في القلب، وأريد أن أتجاوز هذه الحال، أريد أن أشعر في العبادة بالروحانية، أريد أن أشعر بالقرب من الله تبارك وتعالى، أريد أن أشعر بما يشعر به الصالحون والأبرار..! هذا الأمر يُضايق كثيرًا..

فعند التأمل في سبب هذا الشعور أجد أن لدي في حياتي كثير من الأخطاء، وكثير من العراقيل؛ أو بالأصح كثير من الذنوب، وأحتاج أن أبدأ صفحة جديدة مع الله تبارك وتعالى، كل الماضي يطوى، ونبدأ من جديد، صفحة جديدة، صفحة بيضاء ليس فيها إلا الخير والصلاح، وإذا وُجد ذنب أريد أن يمحى من هذه الصحيفة، فأنا أريد أن أبدأ صفحة جديدة مع الله تبارك وتعالى أنسى بها الماضي، أتجاوز المرحلة السابقة..

الصفحة الجديدة هذه هي التوبة؛ فإذا تاب الإنسان إلى الله تبارك وتعالى بدأ بصفحةٍ جديدة مع الله تبارك وتعالى، كل الماضي صفحة وانطوت، ونبدأ من جديد بصفحة جديدة مع الله تبارك وتعالى.

هذا النقاء وهذا الصفاء نبحث عنه جميعًا، نبحث جميعًا عن أن نبدأ مع الله تبارك وتعالى بداية صحيحة، بداية مشرقة، بداية ناصعة، قائمة على العبودية والحب، قائمة على الإخلاص وعلى المتابعة.

وفي الحديث الصحيح: ((إنَّ الله يبسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار، ويبسط يده بالنهار ليتوب مسيء الليل))، فعندنا فرص كثيرة لبدء صفحة جديدة ما تحتاج إلى عقد موعد مع المجهول، لا..

ماذا تحتاج؟

تحتاج عزيمة صادقة.. من الآن، من هذه الليلة، من الآن، من هذا الصباح، أبدأ مع الله تبارك وتعالى صفحة جديدة بتوبة صادقة.

ونحن نحتاج للتوبة، لماذا نحتاج للتوبة؟ لأن بالتوبة تُبدَّل السيئات حسنات، ليس فقط أن التوبة تمحو السيئات، لا؛ بل أمر أفضل من ذلك وأعظم من ذلك؛ وهو أن تُبدَّل السيئة تصير حسنة، قال الله تبارك وتعالى: ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلاً صَالِحًا فَأُوْلَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾.[الفرقان]

تستشعر معي هذا الفضل من الله تبارك وتعالى؟

السيئات والذنوب والآثام، هذه الخطايا التي اقترفتها في الماضي، المعاصي التي فعلناها في الماضي، التي نخاف أن يعاقبنا الله تبارك وتعالى عليها وأن يجازينا بها ونخاف من ذلك؛ بالتوبة تُحوَّل تلك السيئة إلى حسنة.

استحضر معي هذا الأمر: كم لك من الذنوب والآثام سواء كانت صغائر أو كبائر، تنتقل من كفَّة السيئات إلى كفَّة الحسنات بالتوبة، أمر يسير جدًا، حَقِّق التوبة؛ كل ذنوبك تلك الماضية جميعًا تتحوَّل إلى حسنات.

فضل الله عظيم، ولكن المشكلة عندنا نحن، هل نحن صادقون؟ هل لدينا عزيمة حقيقية؟

وفضل الله تبارك وتعالى عظيم ﴿يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ﴾.. كل تلك الآثام تتحوَّل إلى حسنات بفضل الله تبارك وتعالى؛ فنحتاج للتوبة لأن بالتوبة تتبدل السيئات حسنات.

ولو لم يكن إلا هذا الأمر فقط، لكفى محفزًا للتوبة.. الذنوب والخطايا والآثام والمعاصي والصغائر والكبائر.. كل تلك الآثام التي أعلمها عن نفسي يبدلها الله تبارك وتعالى حسنات، هذا لوحده يكفي حافز ودافع لي أن أكون من التائبين.

وهناك فضيلة أخرى جعلها الله تبارك وتعالى -فضائل كثيرة ليست فضيلة واحدة-، واستشعر معي هذه الآيات، وهي آيات استغفار حملة العرش للتائبين، الملائكة حملة عرش الرحمن يستغفرون للتائبين ويدعون لهم..!

أنا ممكن أن يستغفر لي حملة العرش؟! أن يدعو لي حملة العرش؟!

والله إن هذه ميزة عظيمة! كيف أحصل على هذه الميزة؟

بالتوبة الصادقة إلى الله تبارك وتعالى، قال ربي جل جلاله: ﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ﴾.[غافر]

هذا الدعاء الأول: ﴿فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ﴾، ثم يقول من دعائهم: ﴿فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ﴾ مغفرة ووقاية من النار، ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ ۝ رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدتَّهُم﴾ فدعاء بالنجاة من النار ودخول الجنة.

وليس فقط دخول الجنة للتائب وحده، بل لأزواجه وآبائه وذرّيّته إن كانوا صالحين ﴿رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدتَّهُم وَمَن صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ

﴿إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ فالدعوة ليست فقط للتائب، وإنما للتائب ولآبائه ولأزواجه وذريته، سبحان الله العظيم! فضل الله عظيم، ولكن أين أنا؟ أين همّتي وأين عزيمتي؟!

ومن الدعاء أيضًا: ﴿وَقِهِمُ السَّيِّئَاتِ وَمَن تَقِ السَّيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ في نهاية الدعاء يدعون للتائب أن يقيه الله تبارك وتعالى السيئات في مستقبل عمره.. لا إله إلا الله!

إذن لاحظ معي هذه الآية العظيمة، حملة العرش يستغفرون للتائبين ويدعون لهم، قال تبارك وتعالى: ﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ ۝ رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدتَّهُمْ وَمَن صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ۝ وَقِهِمُ السَّيِّئَاتِ وَمَن تَقِ السَّيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ هذه البشرى العظيمة، حملة العرش ومن حول العرش ما أعمالهم؟ تسبيح الله تبارك وتعالى، والاستغفار للمؤمنين، واستغفارهم لك أنت أيها المذنب، ودعوتهم لك أيها المذنب، يدعون لك بالمغفرة والوقاية من الجحيم، وأن تدخل الجنة أنت ومن صلح من آبائك وأزواجك وذرياتك، وأن يقيك الله تبارك وتعالى السيئات..

لاحظت كيف أن التائب عزيزٌ عند الله تبارك وتعالى، وكيف أن فضل الله عظيم، ولكن ما هو سلوكنا نحن، ما هي عبادتنا نحن، ما هي عزيمتنا؟!

أمر آخر للتائبين وهو عظيم، بل هو أعظم الأمور وأعظم الفضائل للتائب؛ وهو محبة الله تبارك وتعالى للتائب، قال ربي تبارك وتعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾[البقرة] يحبُّ التوابين الذين يكثرون من التوبة، الذين يوالون في التوبة، توبة ثم توبة ثم توبة، استغفار ثم استغفار ثم استغفار، ما جزاؤه؟ أنه يحبه الله.

تتخيّل معي يا أخي، أنت أنت! -لا إله إلا الله!- بالعجز والضعف والذنوب والتقصير.. الله يحبُّك!

ما السبيل إلى محبة الله تبارك وتعالى؟

والله في لحظات، أمر يسير جدًا؛ وهو التوبة، الندم، الإقلاع عن الذنب، رد الحقوق.. أمر والله يسير لمن يسره الله تبارك وتعالى عليه، فإذا حققنا التوبة؛ أحبّنا الله.. هل أتصور هذه الميزة العظيمة أن أكون أنا محبوبًا لله تبارك وتعالى! لا إله إلا الله!

وفضائل التوبة كثيرة، ونعلم كثير من فضائل التوبة، ولكن لدينا مشكلة:

رغم معرفتنا بالتوبة وفضائلها، ورغم معرفتنا بحاجتنا للتوبة، بل أحيانًا نعزم على التوبة؛ ولكن لدينا مرض، المرض اسمه التسويف، تسويف التوبة، التأخير، التأجيل، نعم أنا بحاجة للتوبة، وأنا مذنب، وأنا قررت، وأتَّخذ قرارت وعزيمة صادقة، لكن ليس الآن، في المستقبل، سوف أتوب في المستقبل..

تسويف التوبة..

تسويف التوبة هذا مرض، وما سبب هذا المرض؟ لماذا أُؤجّل التوبة؟ لماذا أُسوّف التوبة؟ رغم معرفتي بحاجتي لها وفضيلتها إلا أني أُسوِّف، ما السبب؟

أسباب كثيرة، أذكر منها أربعة أسباب:

السبب الأول: هو طول الأمل، يعني عندما أقول سأتوب في المستقبل معنى هذا أن لدي أمل أني سأعيش فترة طويلة، ثم في المستقبل إن شاء الله سأتوب، هذا معنى تسويف

التوبة، أي طول الأمل، أن أملي في الحياة طويل وأني سأبقى في الحياة أزمنة طويلة ثم أتوب في المستقبل.

وطول الأمل أخبر النبي –صلى الله عليه وآله وسلم– أنه داء يهلك به الناس في آخر الزمان، جاء في الحديث عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال: قال رسول الله –صلى الله عليه وآله وسلم–: ((صلاح أول هذه الأمة بالزهد واليقين، ويهلك آخرها بالبخل والأمل)). والحديث حسن أخرجه الطبراني في المعجم والبيهقي في الشُّعَب.

الشاهد: قال النبي –صلى الله عليه وآله وسلم– عن هذه الأمة: ((يهلك آخرها بالبخل والأمل)) الأمل الطويل.

وقد تكلم العلماء من قديم الزمان على أن من أسباب تأجيل التوبة الأمل الطويل، قال يحيى بن معاذ –رحمه الله تعالى–: الذي حجب الناس عن التوبة طول الأمل، وعلامة التائب إسبال الدمعة، وحبُّ الخلوة، والمحاسبة للنفس عند كل هِمَّة.

القصد: قوله –رحمه الله–: "الذي حجب الناس عن التوبة طول الأمل".

إذن عندي مرض اسمه طول الأمل، كيف أعالج هذه المشكلة؟ هو تصوُّر الحال الذي أنا فيه، أنا الآن أفكِر بالتوبة نعم، لماذا أفكِّر بالتوبة؟ لأن في قلبي الإيمان قوي، لأن حالتي الإيمانية جيدة، إذا أجلت التوبة إلى المستقبل في هذا المستقبل أقترف كثير من الآثام والمعاصي؛ فيُظلِم قلبي باقترافي لتلك الآثام، فلا أعود أفكر مرة أخرى في التوبة، داعي التوبة في قلبي الآن قوي؛ لأن المعاصي قليلة، ولأن نور الإيمان قوي، لكن بتأجيل التوبة تتكاثف الذنوب على القلب، فيُظلِم القلب وتصير التوبة أشق عليّ مما هي عليّ شاقة اليوم، لماذا؟ لكثرة الذنوب والآثام، وتجتمع الذنوب على القلب فيُظلِم.

كما في الحديث في صحيح مسلم، عن حذيفة -رضي الله عنه-، قال النبي -صلى الله عليه وآله وسلم-: ((تعُرض الفتن على القلوب كالحصير عودًا عودًا، فأيُّ قلبٍ أنكرها نُكِت في قلبه نكتةٌ بيضاء، وأيُّ قلبٍ أُشرِبها نُكِت في قلبه نكتةٌ سوداء، حتى تصير على قلبين؛ على أبيض مثل الصفا لا تضرُّه فتنةٌ ما دامت السموات والأرض، والآخر أسود مرباد كالكوز مجخِّيًا لا يعرف معروفا ولا ينكر منكرًا إلا ما أُشرِب من هواه)).

القصد: الذي يجعلني الآن أفكِّر في التوبة هو أن في قلبي إيمان قوي، أن داعي الإيمان في قلبي مازال قويًا، فإذا أجلت أنا على خطر، احتمال أن لا أفكر في التوبة في المستقبل لتكاثر الذنوب على قلبي، هذا أمر.

ثم الأمر الثاني: متى الأجل..؟!

عندما أؤجل بأني سأتوب في المستقبل، وما أدراني متى الأجل؟! لا أدري، إذا أصبحت فلا تنتظر المساء، وإذا أمسيت فلا تنتظر الصباح.

هذا السبب الأول من أسباب مرض تسويف التوبة.

السبب الثاني: استلذاذ المعصية، بمعنى أنا الآن لديّ معاصي وآثام، وأنا أستلذُّ هذه المعاصي والآثام، والتوبة ستحجز بيني وبين هذه المعاصي، سأتركها، سأنقطع عنها، وأنا أستلذُّ بها، فيصعب عليّ أن أترك ما أستلذُّ به، فأؤجل التوبة إلى المستقبل حتى أبقى أطول فترة ممكنة في المعاصي التي آلفها وأستلذُّ بها.

علاج مشكلة استلذاذ المعصية:

المطلوب: هو استقذار المعصية.

أنا الآن أنظر إلى المعصية على أنها لذيذة وأتلذذ بها.. لا؛ المطلوب أن أستقذر المعصية، أن أنظر إلى هذه المعصية على أنها قذارة، والقذارة أتنزه عنها، أنها نجاسة، والنجاسة أتنزه عنها، لا أقربها.

ما الذي يجعلني أستقذر المعصية؟ الذي يساعدني في استقذار المعصية مجموعة أمور:

الأمر الأول: هو النظر إلى الآمر بها، من الذي أمرني بهذه المعصية؟ إنه الشيطان.

الله سبحانه وتعالى يدعو إلى الجنة، والشيطان يدعو إلى السعير، أنا عندما أستجيب لداعي الشهوة أستجيب لمن؟ للشيطان الرجيم، هو يغويني، هل أقبل لنفسي أن أكون في هذا الأمر من جند الشيطان، أو أن أكون في حزب الشيطان؟

أنا أعلم أن الشيطان سيتبرأ ممن اتبعوه في يوم القيامة، لماذا لا أتبرأ منه الآن..؟!

إذن من الأسباب التي تجعلني أستقذر المعصية: هو النظر إلى الآمر بها: الشيطان الرجيم -والعياذ بالله-.

الثاني: هو النظر إلى حالي عند مقارفة الذنب.

عندما أقارف الذنب أنظر إلى هواني على الله تبارك وتعالى، أني عند الله تبارك وتعالى هيّن، ولو كنتُ عند الله كريمًا لعصمني، فأنا اقترفت الذنب عندما تخلى الله تبارك وتعالى عنّي، عندما خذلني الله، ولو كنت عزيزًا عند الله تبارك وتعالى لعصمني كما عصم كثيرًا من الناس من هذه الآثام والمعاصي، فموقفي الآن وأنا متلبِّس بالمعصية أني هيِّنٌ على الله..

هل أرضى أن أكون هيِّنًا على الله؟ هل أرضى أن أكون عند الله هيِّنًا؟

إذن هذا أمر يجعلني أستقذر المعصية، وهو النظر إلى هواني على الله عند مقارفة الذنب.

ثم الأمر الثالث الذي يساعدني على استقذار المعصية: هو تذكر موقف الذلِّ عند الحساب عليها، وأنا بين يدي الله تبارك وتعالى يوم القيامة، وعندما يسألني الله تبارك وتعالى عن ذلك الذنب وتلك المعصية، لا بد أن نستشعر هذا الأمر وهو من أشدِّ المواقف، ومن أرهب المواقف، وقوف الإنسان بين يدي الله يوم القيامة، الموقف عصيب، وموقف مهول، أن يقف العبد بين يدي الله تبارك وتعالى يسأله عن ذنبه..لا حول ولا قوة إلا بالله!

الأمر الرابع الذي يساعدني على استقذار المعصية: هو استحضار ألم العقاب عليها، عندما أستلذُّ الآن بالمعصية هي في الحقيقة عذاب، وهي في الحقيقة عقاب وسعير وجحيم، وهي نار، فإذا نظرت إلى المعصية على أنها جحيم وأنها عذاب النار؛ أبتعد عنها وأستقذرها.

إذن ما يساعدني على استقذار المعصية؟

النظر إلى الآمر بها، وإلى هواني على الله تبارك وتعالى عند مقارفتها، وتذكُّر موقف الذلِّ عند الحساب عليها، واستحضاري ألم العقاب عليها.

هذه الأسباب الأربعة التي تساعدني على استقذار المعصية.

إذن من أسباب التسويف: طول الأمل، استلذاذ المعصية.

الأمر الثالث: استثقال الطاعة.

وهو أن أرى أني بعد التوبة سألتزم طاعات كثيرة، والطاعة ثقيلة، فعندما أستحضر أني سأبقى على طاعات وفي عبادات، أراها بأنها ثقيلة، والثقل هذا يجعلني أبقى في رغبة أن أؤجل التوبة حتى أتخلص من ثقل الطاعة.

العلاج هو: التنعُّم بالطاعة وليس استثقالها، أن الطاعة هي نعيم جعله الله تبارك وتعالى للطائعين.

وما السبيل إلى التنعم بالطاعة؟

أمرين اثنين: الإخلاص، والمتابعة.

إذا كان عندي إخلاص، أو حققت الإخلاص لله تبارك وتعالى؛ تلذذت بالطاعة وتنعمت بها؛ لأن قلبي عند الله، قلبي مع الله، مستحضر ثواب الله، مراقبٌ لله تبارك وتعالى، تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك، هذا الشعور يورث نعيمًا قلبيًا عظيمًا، خصوصًا عند الطاعات. وسيكون لنا في هذا الأمر أحاديث كثيرة.

الأمر الثاني هو متابعة النبي -صلى الله عليه وآله وسلم-، أن أفعل الطاعة كما فعلها النبي -صلى الله عليه وآله وسلم-. فإذا اجتمع في العبادة الإخلاص والمتابعة صارت نعيمًا للعابدين.

السبب الرابع من أسباب تأجيل التوبة أو تسويف التوبة: هو توهم المشقة بعد التوبة، أني إذا تبت سأمتنع عن الآثام والمعاصي، ثم سألتزم الطاعات، والطاعات ثقيلة، وكل يوم، ستكون أيام كثيرة، فيتوهم مشقة، توهم المشقة قائم على السبب السابق وهو استثقال الطاعة، أنه يرى الطاعة بأنها ثقيلة، والطاعة ليست ثقيلة وقد تكلمنا عن هذا.

الأمر الثاني: أن الطاعة على ما فيها من النعيم من القرب لله تبارك وتعالى هي سبيل إلى النعيم في الآخرة، هي سبيل القرب من الله تبارك وتعالى، حتى لو لم تكن الطاعة في ذاتها نعيم، وإنما كانت كلفة ومشقة، حتى ولو كانت.. الطاعة هي نعيم من الله تبارك وتعالى، والعابدون في نعيم في عبادتهم، لكن إذا كانت العبادة ليست هي نعيم إنما هي سبيلٌ للنعيم؛ فهذا سببٌ كافٍ لفعل العبادة، لماذا؟ لأنها تورث رضوان الله تبارك وتعالى، والقرب منه، والنعيم المقيم في جنات النعيم.

من العلاج لتوهم المشقة أو مظنَّة المشقَّة –التي هي سبب من أسباب تسويف التوبة–: الدعاء والتضرع لله تبارك وتعالى، إذا كنت ترى بأن الطاعة ثقيلة أو أن الطاعة شاقة، فاسأل الله تبارك وتعالى، وقد علّمنا النبي –صلى الله عليه وآله وسلم– الكثير من الأدعية.

من الدعاء الذي علمنا النبي –صلى الله عليه وآله وسلم– ((اللهم أعني على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك))، ومن الدعاء أيضًا: ((اللهم اجعلني لك شكَّارًا، لك ذكَّارًا، لك رهَّابًا، لك مطواعًا، إليك مخبتًا، لك أوَّاهًا منيبًا)) وكثير من الأدعية، فالدعاء لله تبارك وتعالى أن ييسر لي الطاعة هذا أمر مشروع، بل كان من دعاء النبي –صلى الله عليه وآله وسلم–.

هذه أربعة أسباب لتسويف التوبة: طول الأمل، استلذاذ المعصية، استثقال الطاعة، توهُّم المشقَّة بعد التوبة.

وأختم هذا الحديث بأثرين اثنين عن ابن عباس –رضي الله عنهما–، وعن الحسن البصري:

روى أبو نعيم في [الحلية] عن ابن عباس –رضي الله عنه– أنه قال: يا صاحب الذنب، لا تأمن من سوء عاقبته، ولما يتبع الذنب أعظم من الذنب إذا عملته، فإن قلة حيائك ممن على اليمين وعلى الشمال وأنت على الذنب أعظم من الذنب الذي عملته، وضحكك وأنت لا تدري ما الله صانعٌ بك أعظم من الذنب، وفرحك بالذنب إذا ظفرت به أعظم من الذنب، وحزنك على الذنب إذا فاتك أعظم من الذنب إذا ظفرت به، وخوفك من الريح إذا حرَّكت ستر بابك وأنت على الذنب ولا يضطرب فؤادك من نظر الله إليك أعظم من الذنب.

وروى الإمام أحمد في [كتاب الزهد] عن الحسن البصري –رحمه الله– أنه قال: يا ابن آدم تَرْكُ الخطيئة أيسر من طلب التوبة.

نسأل الله تبارك وتعالى أن يوفِّقنا لطاعته وأن يصرف عنا معاصيه إنه على كل شيءٍ قدير.

الخاطرة الثالثة:
-النفس بين الرهبة والعاقبة-

الحمد لله رب العالمين، اللهم لك الحمد كما ينبغي لجلال وجهك وعظيم سلطانك، اللهم صلِّ على محمد وعلى آل محمد، كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم، وبارك على محمد وعلى آل محمد، كما باركت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم في العالمين، إنك حميد مجيد، أما بعد:

في الحديث المتفق عليه: عن أبي هريرة –رضي الله عنه– أن رسول الله –صلى الله عليه وآله وسلم– قال: ((حُجِبت النار بالشهوات، وحُجِبت الجنَّة بالمكاره)) ، وفي رواية الإمام مسلم: ((حُفَّت النار بالشهوات، وحُفَّت الجنَّة بالمكاره)).

العبد إما يريد الخير أو يريد الشر؛ الخير الجنَّة، وطريق الجنة مكاره، والشرُّ النار، وطريق النار الشهوات، فيعيش العبد في صراع بين الرغبة والعاقبة، الرغبة تريد الخير ولكن طريقه مكروه، وترغب في الشهوات ولكن نهايته إلى الجحيم، فيعيش في صراع بين الرغبة والعاقبة. هذا الصراع يسمى عند علماء التزكية والسلوك: المجاهدة، مجاهدة النفس.

وعمومًا المجاهدة على نوعين، أو قل هي درجتان: الدرجة الأولى: المجاهدة على ترك الآثام والمعاصي. والحديث هنا عن عباد الله الصالحين، لا نتكلم عن الفُجَّار و.. ، لا لا، الحديث عن الصالحين، المجاهدة عندهم مجاهدة لترك الآثام والمعاصي..

النفس ترغب في المعصية وترغب في الإثم، ولكن المؤمن يجاهد نفسه على عدم فعل المعصية، ترغب نفسه في فعل بعض الآثام، في فعل بعض المعاصي، تنازعه نفسه على المخالفة لبعض الشهوات، لبعض الرغبات المحرَّمة، ولكنه يجاهد نفسه ويكبحها، ويتألم في مجاهدته، ولكن يصبر. القصد: المجاهدة على ترك الآثام والمعاصي.

والآثام والمعاصي كثيرة، لا يتبادر إلى الذهن نوع محدد من المعصية، لا، المعاصي كثيرة وأنواع؛ منها ذنوب قلبية، مثل الكبر، والعجب، والرياء، وحب الرياسة، فيكون الإنسان عنده حب الرياسة وحب الظهور، أو يكون عنده غرور، أو طمع، أو عنده شحّ، وهو يجاهد نفسه على التخلص من هذا الداء، دائمًا نفسه تغالبه وهو يحاول يمنعها، ويبذل مجهود في مصارعة النفس لتغلب الخير على الشر، هذه ذنوب قلبية.

وهناك ذنوب أخرى: هي ذنوب قولية، مثل الغيبة، والسخرية، والفخر بالأحساب والأنساب، وغيرها، يكون موجودًا هذا الداء في نفس المؤمن، ولكنه يجاهد نفسه على أن لا يستسلم لداعي الشر في نفسه، فدائمًا يراغم نفسه، يعاندها، يجابهها، حتى لا تقع في الإثم فهو في مجاهدة.

النوع الثالث من الذنوب: ذنوب عملية بالجوارح، مثل الظلم والعدوان، النظر إلى المحرم، السماع لما نهى الله تبارك وتعالى عن سماعه، هذه الأشياء أيضًا يكون داعيها في النفس شديد، تدعوه نفسه إلى سماع محرم، إلى النظر إلى المحرم، هو لا يسمع ولا يرى، لا يرى المحرم ولا يسمع المحرَّم، ولا يظلم، وليس عنده عدوان، لكن عنده صراع في نفسه؛ نفسه تريد أن يسمع المحرم أو أن يشاهد المحرم أو أن يفعل المحرم، ولكنه يكبح نفسه ويصبر ويجاهد ويراغم نفسه حتى لا يستسلم لداعي الشهوة وداعي المعصية. هذا النوع الأول من أنواع المجاهدة وهو المرتبة الأولى.

فيعيش المؤمن في هذه الحال حال المجاهدة ومدافعة الرغبات السيئة في نفسه من المعاصي والآثام والخطايا، وقد يبذل فيها مجهودًا كثيرًا.

والمرتبة الثانية من المجاهدة هي: المجاهدة على فعل الطاعة والقرب إلى الله تبارك وتعالى، وهذه أعلى من المرتبة السابقة -وهي مجاهدة النفس على ترك الآثام ومراغمة النفس على ترك الرغبات أو مجابهة الرغبات في الآثام والمعاصي والشهوات-.

الآن لا، يجاهد نفسه على فعل الطاعات والقُرب إلى الله تبارك وتعالى، فداعي الشرّ في نفسه ضعيف، نعم تدعوه نفسه للآثام والمعاصي لكنه لا يأتيها إلا لممًا، لا يأتي من الذنوب إلا القليل، وهمُّه ومجاهدته مُنصبَّة إلى أمر أعظم من ذلك وهو فعل الطاعة، فيكون همُّه في الحياة كيف يكون صِدِّيقًا، كيف يكون محسنًا، كيف يكون من الصالحين، من المخبتين، من الخاشعين، هذا الهمُّ الذي يسيطر على حياته، تفكيره، رغبته، دائمًا التفكير في هذا الأمر -أن يكون صِدِّيقًا- غالب على ذهنه وعلى حسِّه وعلى شعوره وعلى رغبته، فيجاهد نفسه من أجل الوصول إلى هذه المرتبة، أن يكون صِدِّيقًا، أن يكون محسنًا، أن يكون من الصالحين، من المخبتين، من الخاشعين، أن يكون أوَّاهًا منيبًا، وما إلى ذلك من الصفات العظيمة الطيِّبة.

إذن صار عندنا نوعين: المرتبة الأولى مراغمة النفس لترك الآثام، والمرتبة الثانية -وهي أعلى- نفسه لم تعد تراوده كثيرًا لفعل الآثام والمعاصي، نعم يأتي الذنوب والمعاصي لكن داعيها ضعيف في نفسه، وإنَّما في نفسه تثاقل عن فعل الطاعات التي ترفعه عند الله تبارك وتعالى، -كما قلت- كأن يكون صِدِّيقًا أو محسنًا أو ما إلى ذلك من الصفات الجليلة العظيمة التي يتقرَّب بها عند الله تبارك وتعالى.

وفي مجاهدة العبد نفسه للحصول على الطاعات العظيمة والقرب من الله تبارك وتعالى، النفس في سيرها، في مجاهدتها لها أربع حالات، ذكرها ابن القيم -رحمه الله- في زاد المعاد، يقول أن أول مرتبة من مراتب مجاهدة النفس على فعل الطاعة هي مجاهدتها على تعلُّم الهدى.

يعني يعرف مرتبة الصديقين، أن يتعلم كيف يكون صديقًا، فيعرف منزلة الصدِّيقيَّة ويتعلَّم كيف يكون صدِّيقًا، ما هو السبيل أن أكون من الصدِّيقين، أو ما هو السبيل حتى أكون محسنًا، أو ما هو السبيل حتى أكون مخبتًا، من هم المخبتون؟ وكيف أكون مخبتًا؟ نعم أعرف الخشوع لكن كيف أكون خاشعًا؟ ما هي السبل التي تجعلني من الخاشعين؟

إذن المرتبة الأولى وهي مرتبة تعلُّم الهدى، تعلُّم الحق، تعلُّم العبادة.

المرحلة الثانية: وهي مجاهدتها على العمل بالعلم.

يعني نعرف الخشوع وآثاره وسبله، وكيف أكون من الخاشعين، وما هي الوسائل المعينة على الخشوع، أعرفها وأعلمها جيدًا، لكن هل أجاهد نفسي على العمل بها؟ نعم أعرف كيف يكون العبد صدِّيقًا، أعرف كيف يكون العبد من الصالحين، أعرف ذلك، أعرف كيف يكون وليًّا من أولياء الله تبارك وتعالى، أعرف ذلك، ولكن هل أجاهد نفسي على السير إلى الله تبارك وتعالى لأكون صدِّيقًا ومحسنًا وصالحًا ومخبتًا وخاشعًا أو أوَّاهًا منيبًا أو غيره من الصفات؟ إذن نحتاج إلى مجاهدة للعلم ومجاهدة للعمل بالعلم.

المرتبة الثالثة: وهي مجاهدة النفس على الدعوة إلى الحق.

عرفت كيف أكون خاشعًا، وأجاهد نفسي على أن أحقِّق الخشوع في حياتي وفي عبادتي، الأمر الثالث هو دعوة الخلق أن يلتزموا الحق الذي يعلمونه.

فهذا يحتاج مني إلى مجاهدة النفس على الدعوة؛ لأننا أحيانًا نجتمع مع إخواننا ومع أصدقائنا ومع أهلنا، وكثير من الأوقات تكون في غير فائدة، ولو بذلنا قليلًا من هذا الوقت في معرفة إصلاح النفس والتزكية والتواصي بالحق والتواصي بالصبر، لكان في ذلك خيرٌ عظيم.

المرتبة الرابعة: مجاهدة النفس على الصبر على مشاق الدعوة إلى الله وأذى الخلق.

إذن أربع مراتب في مجاهدة النفس على الطاعة: مجاهدتها على العلم، ومجاهدتها على العمل، مجاهدتها على الدعوة إلى الحقِّ، الرابع مجاهدتها على الصبر.

قال ابن القيم -رحمه الله- في توصيفه لهذا، قال: فإذا استكمل العبد هذه المراتب الأربع صار من الربَّانِيّن.

متى يكون ربّانيًا؟ قال: إذا جمع بين هذه المجاهدات الأربع.

وفي المجاهدة لفعل الطاعة عندنا مشكلة:

نفعل كثيرًا من الطاعات ولكن ثمرة وصول الطاعة إلى القلب ضعيفة، المشكلة هي ضعف وصول أثر العبادة إلى القلب، فيكون للإنسان عبادات كثيرة من صلاة وذكر وتلاوة وصدقة وصيام وغيرها من العبادات، ولكن أثرها في القلب ضعيف، فالخشوع ضعيف، وكذلك الورع والإخبات والزهد في الدنيا والشوق للقاء الله، كل هذه العبادات القلبية وجودها ضعيف، لماذا هذا الضعف؟

لأن العبادات لم يصل أثرها إلى القلب. قال ابن القيم -رحمه الله-: بين العمل وبين القلب مسافة، وفي تلك المسافة قُطَّاع تمنع وصول العمل إلى القلب، فيكون الرجل كثير العمل وما وصل منه إلى قلبه محبة ولا خوف ولا رجاء، ولا زهد في الدنيا ولا رغبة في الآخرة، ولا نور يُفرِّق به بين أولياء الله وأعدائه، وبين الحق والباطل.

وهذا تراه في كثير من الناس، له عبادة وله صلاح في ذاته، لكن التصورات في ذهنه غير صحيحة، لا يستطيع أن يفرِّق بين الحق والباطل، بين أهل الخير وأهل الشر..

فقال ابن القيم -رحمه الله-: فيكون الرجل كثير العمل وما وصل منه إلى قلبه محبة ولا خوف ولا رجاء، ولا زهد في الدنيا ولا رغبة في الآخرة، ولا نور يفرِّق به بين أولياء الله وأعدائه وبين الحق والباطل، ولا قوة في أمره، فلو وصل أثر الإيمان إلى قلبه لاستنار وأشرق، ورأى الحق والباطل، وميَّز بين أولياء الله وأعدائه، وأوجب له ذلك مزيدًا من الأحوال.

إذن المشكلة هي ضعف وصول أثر العبادة إلى القلب..

أسباب ضعف وصول أثر العبادة إلى القلب:

أكثر من سبب، السبب الأول: هو ضعف العبادة، أن الإنسان يفعل العبادة وهي ضعيفة، قلة الخشوع فيها، ليست تامَّة بسننها وآدابها، ضعف الإقبال على الله تبارك وتعالى عند أدائها، فتكون العبادة ضعيفة فلا تصل إلى القلب بالشكل الصحيح، فنعمل العبادات ولكن ما أورثت في قلوبنا كثيرًا من الخشية، ولا من الخوف، ولا من الرهبة، ولا من الرجاء، ولا من الشوق إلى الله تبارك وتعالى، ولا من الحياء، لماذا؟ لأن العبادات ضعيفة. فعلنا هذه العبادة بضعف.

السبب الثاني من أسباب ضعف وصول أثر العبادة إلى القلب: هو أن هناك قواطع للطريق، كما قال ابن القيم: "بين العمل وبين القلب مسافة، وفي تلك المسافة قُطّاع" في هذه المسافة هناك قاطع طريق، المعاصي والآثام، ولن أتكلم عن المعاصي والآثام سأتكلم عن أمور أخرى، لأن الآثام والمعاصي معروفة، لكن سأتكلم عن أمور أخرى حتى لو تجنب العبد الآثام والمعاصي وما زالت موجودة هذه، فإنها تُضعِف أثر العبادة في القلب..

من هذه الأمور التي تضعف أثر العبادة على القلب: كثرة الخلطة، والتمني، والتعلق بغير الله تبارك وتعالى، وكثرة الطعام، وكثرة النوم.

الأمر الأول: وهو كثرة الخلطة. المقصود بكثرة الخلطة هو الاختلاط مع الناس ومع الأشخاص في كثيرٍ من الأمور غير الواجبة، يعني في المباحات، وأحيانًا في المكروهات، وأحيانًا قد تصل إلى المحرمات، والصواب هو خلطة الناس ومعاشرة الناس في الخير، كالجمعة والجماعة، والأعياد، والحج، والتعلُّم، والجهاد، والنصيحة.. وكل أمر واجب أو مستحب فالخلطة فيه مطلوبة والاجتماع فيه مرغوب، فيجتمع مع الناس في الخير ويعتزلهم في الشر، يخالطهم في الخير ويجتنب الشر، إذا كانوا في معصية أو في إثم فلا يخالطهم ولا يبقى معهم، بل الصواب والواجب الشرعي هو أن ينكر المنكر وأن يأمر بالمعروف.

أما كثرة الاجتماعات في المباحات والحديث في فضول الحديث من المباح، فالتقليل منه مطلوب، واستغلاله في طاعة الله تبارك وتعالى أفضل، يعني إذا كان هناك إنسان يجتمع مع إخوانه أو مع أصدقائه أو مع جيرانه أو مع أهله، وتبادلوا أطراف الحديث، فإذا جمع الكلام على أمر فيه فائدة في الدين أو في الدنيا كان ذلك أفضل له في الدنيا والآخرة. هذا الأمر الأول وهو كثرة الخلطة.

الثاني: وهو التمني؛ أن يكون الإنسان في عبادة أو في طاعة أو في صلاح، ولكن قلبه يتمنى، قد يتمنى الملك، قد يتمنى السلطان، يتمنى المال، يتمنى الثراء -من المباح- هذه الأماني وانشغال القلب بها لو أخلفها بأماني ما عند الله تبارك وتعالى، يتمنى ما عند الله تبارك وتعالى من النعيم المقيم والرضوان العظيم؛ لكان أرفع له عند الله تبارك وتعالى، لأن الأمنية الأولى لا تغني عنه شيئًا، هي كلها أحلام يقظة أنه مَلك، وأنه حصل، وأنه استفاد، وأن لديه، وأنه حقق، وفي الحقيقة ليس في يده شيء، بينما إذا كان همُّه وأمنيته عند الله تبارك وتعالى في جنَّات النعيم، وفي رضوان الله تبارك وتعالى، وما يحقِّقه من الصلاح والخير، كان ذلك أزكى لقلبه وأطهر.

الثالث: وهو التعلق بغير الله تبارك وتعالى؛ العطاء من الله تبارك وتعالى، والله سبحانه وتعالى هو الذي يمنع، فإذا تعلق القلب بغير الله تبارك وتعالى طمعًا فيما لديه أو كفًا من شره، مع الغفلة عن الإيمان بالقدر بأن الله تبارك وتعالى هو الذي يُصرِّف الأمور، وأن الله سبحانه وتعالى هو الذي يُيسِّر الأسباب؛ كان ذلك التعلق سببًا في قسوة القلب..

فيطمع في ما في أيدي الناس، فلان أعطاني، فلان ما أعطاني، وعدني، سآخذ منه، لا أريد منه.. لا، المطلوب هنا أن يتعلق القلب بالله تبارك وتعالى، الله سبحانه وتعالى هو الذي يعطي، وإنما هذه أسباب، فإذا أعطاك الله سبحانه وتعالى لا يمكن لأحدٍ أن يأخذ من رزقك، وإذا منعك الله تبارك وتعالى لا يمكن لأحدٍ أن يوصل إليك ما منعك الله تبارك وتعالى؛ فالأمنية والتمني والتعلق هو بالله تبارك وتعالى، لا نتعلق إلا بالله تبارك وتعالى.

الأمر الرابع: وهو كثرة الطعام، والطعام يفسد الروح إذا كان فاسدًا.

وفساد الطعام ممكن أن نقسمه إلى قسمين: القسم الأول هو المحرم، فإذا أكل الإنسان محرمًا أفسد ذلك إيمانه وأفسد روحه وأورثها ظلمة. والمحرمات من الطعام ممكن أن تكون قسمين: القسم الأول: وهو ما حرمه الله تبارك وتعالى كالميتة والدم ولحم الخنزير وما إلى ذلك. ومحرم آخر: لحقِّ العِباد، كالمسروق والمغصوب والمنهوب وما إلى ذلك. هذه المحرمات تفسد الروح، وتفسد النفس، وتفسد القلب.

النوع الثاني من الطعام المفسد للروح: هو الإسراف، أن يتعدى في الإسراف في الأكل والطعام، والتوسع في الشهوات والرغبات، هذا يؤثر على النفس ويورثها ثقلًا عن الطاعة وعن العبادة، وهذا أمر معروف مجرب مشهور، وفي الحديث الذي أخرجه أحمد والترمذي وهو حديثٌ حسن، أن النبي ﷺ قال: ((ما ملأ آدميٌّ وعاءً شرًا من بطنه، بحسب ابن آدم لقيماتٍ يُقمن صلبه، فإن كان لا بد فاعلًا فثلثٌ لطعامه وثلثٌ لشرابه)).

الأمر الأخير مما يفسد النفس ويمنع من وصول أثر العبادات إلى القلب: هو كثرة النوم.

وكثرة النوم تسبب الغفلة والكسل، ومنه ما هو مكروه شرعًا، كالنوم بعد المغرب قبل العشاء، هذا ورد فيه عن النبي ﷺ النهي، ومنه ما هو مكروهٌ طبعًا كالنوم بعد الفجر أو النوم بعد العصر، ولا يُعرف فيها حديث صحيح في النهي عن النوم بعد الفجر أو النوم بعد العصر، بل ورد فيه أحاديث إما ضعيفة وإما موضوعة مثل حديث: يا بنيَّة قومي فاشهدي رزق ربِّك عز وجل ولا تكوني من الغافلين، فإن الله عز وجل يُقسِّم أرزاق الناس ما بين طلوع الفجر إلى طلوع الشمس. وهذا الحديث يقول عنه المحدثون أنه ليس بحديث، هو مكذوب على النبي –صلى الله عليه وآله وسلم–.

القصد: أن كثرة النوم تؤثر على الروح، وتمنع من وصول أثر العبادة إلى القلب.

عمومًا الإسراف: الإسراف في الطعام، الإسراف في النوم، الإسراف في الخلطة والالتقاء مع الناس، الإسراف في التمني، التعلق بغير الله تبارك وتعالى، كل هذه أمور إن زادت عن حدها، تحوَّلت إلى حواجز وحواجب تحجب القلب عن الاستفادة من ثمرة الطاعة.

نسأل الله تبارك وتعالى أن يوفقنا لطاعته، وأن يصرف عنا معاصيه، إنه على كل شيءٍ قدير.

الخاطرة الرابعة
-القلوب الوجِلَة-

الحمد لله رب العالمين، اللهم لك الحمد كما ينبغي لجلال وجهك وعظيم سلطانك، اللهم صلِّ على محمد وعلى آل محمد، كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم، وبارك على محمد وعلى آل محمد، كما باركت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم في العالمين، إنك حميدٌ مجيد، أما بعد:

قال الله تبارك وتعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۞ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ۞ أُوْلَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُمْ دَرَجَاتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾. [الأنفال]

فذَكَرَ الله تبارك وتعالى في هذه الآيات من هم المؤمنون حقًا، قال ربي تبارك وتعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾، فذكر الله سبحانه وتعالى أول صفة وهي خشية القلوب، والخوف في القلب من الله تبارك وتعالى، إذا ذُكر الله فإن القلب في حالة وَجَل ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا﴾ هذه الصفة الثانية، ﴿وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ الصفة الثالثة، ﴿الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ﴾ أربعة، ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ خمسة، ﴿أُوْلَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُمْ دَرَجَاتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾.

فدائمًا يتوجه السؤال للنفس، أسأل نفسي هل إذا ذُكِر الله قلبي في وجل؟ ﴿الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾، هل عندما يُذكر الله أشعر بالخشية، أشعر بالخوف، أشعر بالوجل؟ هل إذا تليت آيات الله أزداد بها إيمانًا؟ هل عندي توكل؟ هل أنا ممن يقيم الصلاة؟ هل عندي إنفاق في سبيل الله؟ هل أنا من المتصدِّقين؟

هذه الصفات لا بد أن أراعيها، يعني تلاوتي للقرآن الكريم ليست للبركة فحسب، وليست للثواب فحسب، وإنما التلاوة من أجل العمل أقرأ القرآن لأعمل به.

القصد: ذَكَرَ الله سبحانه وتعالى في هذه الآيات صفات المؤمنين حقًّا، وذكر أول صفة منها وهي وجل القلوب ﴿الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾.

وقال الله تبارك وتعالى: ﴿فَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَلَهُ أَسْلِمُوا وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ﴾ [الحج] سبحان الله، انتبه مع الآية! عِشْ معي مع الآية، لا إله إلا الله! البشارة الآن للمخبتين، هل أنا من المخبتين؟ طيب من هم هؤلاء المخبتون؟

قال الله تبارك وتعالى: ﴿فَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَلَهُ أَسْلِمُوا وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ ۝ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَالصَّابِرِينَ عَلَى مَا أَصَابَهُمْ وَالْمُقِيمِي الصَّلَاةِ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ هذه صفات المخبتين.

أول صفة: ﴿الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ فعندهم خوف، وعندهم صبر ﴿وَالصَّابِرِينَ عَلَى مَا أَصَابَهُمْ﴾، وإقام الصلاة، والإنفاق من المال ﴿الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَالصَّابِرِينَ عَلَى مَا أَصَابَهُمْ وَالْمُقِيمِي الصَّلَاةِ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾، هؤلاء لهم البشارة الذين سماهم الله سبحانه وتعالى المخبتين.

وقال ربي تبارك وتعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ۝ وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ۝ وَالَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ۝ وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ ۝ أُوْلَئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ﴾ [المؤمنون]، تريد أن تكون من السابقين إلى الخيرات، من المسارعين في رضوان الله تبارك وتعالى؟ هذه صفاتهم: الخشية لله تبارك وتعالى، الإيمان بالله وبآياته، اجتناب الشرك، الإنفاق، والخشية، المسارعة في الخيرات.. ﴿إِنَّ الَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ۝ وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ۝ وَالَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ۝ وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ ۝ أُوْلَئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ﴾.

الوجل، ما هو الوجل؟

ذكر الراغب الأصفهاني في مفردات غريب القرآن قال: إن الوجل استشعار الخوف وهو معروف. هذا في لغة العرب. كما في لسان العرب: الوجل: الفزع والخوف، يعني الوجل بمعنى الخوف.

لماذا الخوف؟ الخوف عبادة، والخوف شرطٌ للإيمان، قال الله تبارك وتعالى: ﴿إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءهُ فَلاَ تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران] معنى الآية: إنما ذلكم الشيطان يخوفكم من أوليائه فلا تخاوفوا أولياء الشيطان وخافوا الله تبارك وتعالى ﴿إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءهُ فَلاَ تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾.

الشاهد: ﴿وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ إن كنتم مؤمنين فخافوا من الله تبارك وتعالى.

فالخوف لماذا؟

لأنه شرطٌ للإيمان.

ولأن الله سبحانه وتعالى أثنى على الخائفين منه تبارك وتعالى، قال ربي جل جلاله: ﴿رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاء الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ ۝ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾.

لماذا الخوف؟ لأن الخائفين هم المنتفعون بالقرآن، قال ربي تبارك وتعالى: ﴿وَأَنذِرْ بِهِ...﴾ -بالقرآن- ﴿وَأَنذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُواْ إِلَى رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِ وَلِيٌّ وَلاَ شَفِيعٌ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ [الأنعام].

وقال ربي تبارك وتعالى: ﴿فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ﴾ [ق].

هل نخاف من الحشر؟ هل نخاف من وعيد الله تبارك وتعالى؟ هذا سؤال لا بد أن أسأله نفسي باستمرار، هل أنا ممن يخاف من الحشر وأستعد له؟ هل أنا ممن يخاف من وعيد الله تبارك وتعالى عندما يخوفنا في القرآن، هل نخاف أم تمر علينا الآيات من غير خشية ولا خوف؟

قال ربي تبارك وتعالى: ﴿قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ الدِّينَ ۝ وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ ۝ قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ۝ قُلِ اللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَّهُ دِينِي ۝ فَاعْبُدُوا مَا شِئْتُم مِّن دُونِهِ قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ ۝ لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ النَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ذَٰلِكَ يُخَوِّفُ اللَّهُ بِهِ عِبَادَهُ يَا عِبَادِ فَاتَّقُونِ﴾ [الزمر] هل هذه الآيات تُخوِّف؟ هل أخاف من وعيد الله تبارك وتعالى؟

لماذا الخوف؟ لأن الخائفين هم المعتبرون، قال ربي تبارك وتعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ۝ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ النَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ﴾ [هود]

قال إبراهيم بن سفيان: "إذا سكن الخوف القلوب أحرق مواضع الشهوات منها، وطرد الدنيا عنها". فوجود الخوف في القلب يحرق الشهوات ويزيلها.

ويذكرون عن ذي النون المصري أنه قال: "الناس على الطريق ما لم يزل عنهم الخوف، فإذا زال عنهم الخوف ضلُّوا الطريق". يعني ضلوا الطريق إلى الله تبارك وتعالى، لكن ما دام الخوف موجود فهو يقودهم إلى الله تبارك وتعالى ويمنعهم من انتهاك المحرمات.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله تعالى-: "الخوف المحمود ما حجزك عن محارم الله".

هناك خوف محمود وهناك خوف مذموم، الخوف المحمود الذي يثني عليه الله تبارك وتعالى في القرآن ويذكره النبي ﷺ في السنة، وهو محمود وهو خير، وهو الخوف الذي في القلب الذي يمنع أو يحجز عن ارتكاب المحرمات، فقال ابن تيمية: "الخوف المحمود ما حجزك عن محارم الله".

والخوف المحمود في الكتاب والسنة أنواع:

منه: الخوف من الله مهابةً لله تبارك وتعالى، هيبةً لله تبارك وتعالى، تعظيمًا لله تبارك وتعالى.

والسبيل إلى تحقيق هذا الخوف في قلوبنا هو معرفة الله تبارك وتعالى، التأمل في الأسماء والصفات -في صفات الله تبارك وتعالى-، وهي في كتاب الله كثيرة، مثلاً صفة العلم -علم الله تبارك وتعالى-.

التأمل في صفة واحدة من صفات الله تبارك وتعالى أمر عظيم جدًا، يورث في القلب الكثير من الإيمان والخشية، مثلاً إذا تأمل الإنسان في علم الله تبارك وتعالى ومدى سعة علم الله تبارك وتعالى تندهش العقول، قال ربي تبارك وتعالى: ﴿وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لاَ يَعْلَمُهَا إِلاَّ هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلاَّ يَعْلَمُهَا﴾ لا إله إلا الله، سبحانك ربي! يعني تخيّل ورقة! لا إله إلا الله! كم الأوراق الموجودة في الأرض! سبحانك ربي لا إله إلا أنت! ﴿وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلاَّ يَعْلَمُهَا وَلاَ حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الأَرْضِ وَلاَ رَطْبٍ وَلاَ يَابِسٍ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ [الأنعام].

قال الله تبارك وتعالى: ﴿اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَى وَمَا تَغِيضُ الأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ﴾ [الرعد]، ﴿يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَى﴾ كم الإناث في الأرض؟! كم الإناث؟! ليس البشر فقط، البشر والحيوانات والحشرات! لا إله إلا الله، سبحانك ربي لا إله إلا أنت!

﴿يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَى﴾ ما في بطنها وما نوعه، ﴿اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَى وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ ۝ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ ۝ سَوَاءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ الْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ ۝ لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِّن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ ۗ إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ ۗ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ ۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِ مِن وَالٍ ۝ هُوَ الَّذِي يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ ۝ وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلَائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَاءُ وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ﴾.

القصد: التأمل في أسماء الله تبارك وتعالى، والتأمل في أفعال الله تبارك وتعالى، وفي صفاته في كتابه العزيز؛ يورث مهابةً وتعظيمًا وإيمانًا عظيمًا، ولكن أين القلوب الواعية؟

إذن من أنواع الخوف المحمود: الخوف مهابةً وتعظيمًا لله.

النوع الثاني: الخوف من التقصير في العبودية، أننا ما أدَّينا العبادة كما يحب الله تبارك وتعالى، إما أن نكون ضيّعنا العبادة لم نفعلها، أو لم نفعلها كما يريد الله تبارك وتعالى، وأيضًا لم نفعلها كما تنبغي في حق الله تبارك وتعالى.

فالخوف من التقصير في العبودية، التقصير في الطاعات، التقصير في القيام بالحقوق، التقصير في أعمال القلوب من الخشية والخوف والإخبات والشكر والصبر والتوكل والإنابة وتعظيم أمر الله تبارك وتعالى والخشية له، كثير من هذه العبادات لدينا فيها تقصير، هذا يستدعي منا خوف، نخاف على أنفسنا..

الخوف في واجبات الجوارح من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وتلاوة القرآن، والذكر، وقول التي هي أحسن.. أعمال كثيرة من الجوارح لدينا فيها تقصير.

والتقصير من القيام بالحقوق: حقوق الوالدين، والأرحام، والجيران، ونصرة المستضعفين، وتعليم الجاهلين، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والجهاد في سبيل الله، والرباط، والخدمة

و.. و.. ، أعمال كثيرة لدينا فيها تقصير -لا حول ولا قوة إلا بالله!-، هذا يستدعي منا خوف، نخاف من الله تبارك وتعالى أننا قصّرنا في عبوديته -لا حول ولا قوة إلا بالله-.

ومن أنواع الخوف المحمود: الخوف من التقصير في شكر النعم، يعني الطاعات ما قمنا بها ولا أدَّينا شكر النعم التي أمر الله تبارك وتعالى أن نشكره عليها.

طيب اسمع معي هذا الحديث لو سمحت: عن أبي هريرة -رضي الله عنه-، أن رسول الله -صلى الله عليه وآله وسلم- قال: ((أول من يُسأل عنه يوم القيامة -يعني العبد- من النعيم أن يُقال له ألم نُصِحَّ لك جسدك؟ ونرويك من الماء البارد؟)) . الحديث في مشكاة المصابيح، وقال الألباني بأنه حديث صحيح.

((ألم نصح لك جسمك ونرويك من الماء البارد؟)) لا إله إلا الله! فالنعم كثيرة جدًا ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَةَ اللَّهِ لاَ تُحْصُوهَا﴾ [النحل، إبراهيم]، ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ﴾ [النحل].

يا أخي، نحن بحاجة إلى وقت ولو يسير للتأمل في نعم الله تبارك وتعالى علينا، والثناء على الله تبارك وتعالى، والاعتراف بالمِنَّة من الله تبارك وتعالى، تحتاج إلى تأمل.. يعني كثير من النعم أعطانا الله تبارك وتعالى من غير استحقاق، وأعطانا تبارك وتعالى من غير مشورة، وكما أن الله سبحانه وتعالى أعطاها من غير استحقاق ومن غير مشورة قد يأخذها منا من غير إعلام ولا موعد مسبق.. أعطاك الله سبحانه وتعالى نعمة النظر، يأخذها متى شاء، وكم أخذ الله تبارك وتعالى من أبصار كثيرٍ من الخلق ما كانوا يتصوَّرون يومًا من الدهر أن يُذهِب الله تبارك وتعالى نور أبصارهم، وكثير كثير من النعم.

((ألم نصح لك جسمك ونرويك من الماء البارد؟))، ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَةَ اللَّهِ لاَ تُحْصُوهَا﴾.

ومن أنواع الخوف المحمود: الخوف من عدم قبول الطاعة، عملنا الطاعات وأدَّينا الطاعات، لكن نخشى أن تكون غير مقبولة.

جاء في مسند الإمام أحمد، وهو عند الترمذي، عن عائشة -رضي الله عنها- قالت: قلت يا رسول الله، قول الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ﴾ أهو الذي يزني ويشرب الخمر ويسرق؟ قال: ((لا يا ابنة الصديق، ولكنه الرجل يصوم ويصلي ويتصدق، ويخاف أن لا يُقبل منه)).

قال الحسن البصري: "عملوا والله بالطاعات، واجتهدوا فيها، وخافوا أن تردَّ عليهم، إن المؤمن جمع إحسانًا وخشية، والمنافق جمع إساءةً وأمنًا".

ومن الخوف المحمود: الخوف من العقوبة على الذنوب، وقد أذنبنا ذنوبًا كثيرة، ما منا إلا وهو مذنب، وقد قال ربي تبارك وتعالى كما في الحديث القدسي: ((يا عبادي، إنكم تخطؤون بالليل والنهار))، نعم، نحن نذنب في الليل والنهار، والله سبحانه وتعالى يستر علينا، والله تبارك وتعالى يحلم علينا، ولكن نخشى من العقوبة، وأشد العقوبة أن تكون العقوبة يوم القيامة -والعياذ بالله-، فلدينا ذنوب كثيرة تحتاج إلى توبة وإلى استغفار وأن نبقى على حذر وعلى خوف.

من الخوف المحمود: الخوف من الخذلان، أن يخذلنا الله تبارك وتعالى، قال ابن القيم -رحمه الله-: "أجمع العارفون على أن كل خيرٍ أصله توفيق الله للعبد، وكل شرٍّ أصله خذلانه للعبد، وأجمعوا على أن التوفيق أن لا يكلك الله إلى نفسك، وأن الخذلان هو أن يُخَلِّي بينك وبين نفسك"، ثم قال ابن القيم -رحمه الله-: "توفيق الله للعبد أن يجعله جامعًا لصفات.." يعني هل أنا في توفيقٍ من الله تبارك وتعالى، أو أنا في خذلان؟ هل أنا إنسان موفّق، أم أنا إنسان مخذول؟

كيف أعرف أني موفّق، أو أني مخذول؟

مجموعة صفات:

أولًا: الموفق يحب ما يحبه الله تبارك وتعالى، يحب الطاعات، ويستقذر المعاصي، المعاصي عنده قذرة، لكنه يحب الطاعة، يشتاق إليها.. هل أنا أحب الطاعة وأستقذر المعصية؟ فالإنسان الموفق يحب ما يحبه الله تبارك وتعالى، هذا واحد.

الثانية: يريد ما يريده الله تبارك وتعالى، لا تكفي فقط المحبَّة؛ لأن الإنسان قد يحب الأمر ولا يريده، يعرف أن الإخلاص والطاعة والجهاد أمر طيب، لكنه لا يريد أن يكون من هذا الصنف.

فالإنسان الموفق يكون محبًّا لما يحبُّه الله تبارك وتعالى، مريدًا لما يريده الله تبارك وتعالى.

الثالثة: أن يكون قادرًا على فعل ما يرضي الله تبارك وتعالى؛ لأن الإنسان قد يجمع محبة وإرادة، ولكنه غير قادر، عاجز، فهذا ليس له من التوفيق التمام.

إذن محبة وإرادة وقدرة على الفعل.

الرابعة: ثم أن يكون مُؤثِرًا الطاعة على غيرها، قد تزدحم الإرادات، يريد الدنيا ويريد الآخرة، يريد الطاعة ويريد بعض المباحات، فعندما يحصل عنده ازدحام ماذا يُؤثِر؟ يُؤثِر ما عند الله تبارك وتعالى والدار الآخرة، أم أنه يركن إلى الدنيا؟ الإنسان الموفق يُؤثِر ما عند الله تبارك وتعالى، هذا الرابع.

الخامسة: يبغض ما يسخط الله تبارك وتعالى ويكرهه، الأشياء التي يكرهها الله سبحانه وتعالى ويبغضها هو يزهد فيها، بل يكرهها ويمقتها، فيكره الآثام والمعاصي.

إذن هذه خمس: أن يكون محبًّا لما يحبه الله تبارك وتعالى، مريدًا لما يريده الله تبارك وتعالى، قادرًا على فعل ما يرضي الله تبارك وتعالى، مؤثِرًا للطاعة، مبغضًا للمعصية. إذا اجتمعت هذه الخمس في عبد فهو موفق، وإلا فهو مخذول..

يعني إذا أنا أحببت المعصية فأنا مخذول، إذا أنا أردت المعصية فأنا مخذول، إذا كنت عاجزًا عن فعل الطاعة فعندي من الخذلان، إذا لم أُوثِر رضوان الله تبارك وتعالى والدار الآخرة وما عند الله فأنا إنسان مخذول، إذا اشتقتُ للمعاصي والآثام ورغبتُ فيها، فأنا إنسان مخذول -والعياذ بالله-.

لا؛ لا أريد أن أكون مخذولًا، أريد أن أكون عبدًا موفّقًا..

ما السبيل إلى أن أكون عبدًا مُوفقًا..؟

الله، أن أدعو الله تبارك وتعالى، أن أبتهل إليه، أن أتوكل عليه، صدق اللجوء إلى الله تبارك وتعالى، هذا هو السبيل الوحيد لتوفيق الله تبارك وتعالى، ما هو؟ صدق اللجوء إلى الله تبارك وتعالى.

لذلك قال ربي تبارك وتعالى: ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ﴾ [الحجرات]، فالتحبيب والتكريه والتبغيض هو من الله تبارك وتعالى، هو ربي تبارك وتعالى الذي يملك هذا الأمر، وقلبي في يد الله تبارك وتعالى يُصرِّفه كيف يشاء ويُقلِّبه كيف يشاء، ليس بمجهودي وليس باجتهادي، وليس بتضحيتي وليس ببذلي، وإنما الله تبارك وتعالى هو الذي وفقني، الله تبارك وتعالى هو الذي يُحبِّب إليَّ الطاعة.. أسأل الله تبارك وتعالى: يا ربِّ حبِّب لي الإيمان، يا ربِّ زيِّنه في قلبي، يا ربِّ بغِّض إليَّ المعاصي والآثام والكفر.. فالسبيل الوحيد هو صدق الالتجاء إلى الله تبارك وتعالى.

ثمَّ أخيرًا، من أنواع الخوف المحمود: هو الخوف من سوء الخاتمة، قد يكون الإنسان بدايته الصلاح والخير، ثم يُختم له -والعياذ بالله- بالسوء.

والحديث أخرجه البخاري ومسلم، عن ابن مسعود -رضي الله عنه-، أن رسول الله -صلى الله عليه وآله وسلم- قال: ((فوالذي لا إله غيره، إن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع، فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها، وإن أحدكم ليعمل بعمل أهل النار حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع، فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخلها)).

جزاء الخائفين..

ما جزاء الخائفين من الله تبارك وتعالى الذين جمعوا هذه الصفات من الخوف المحمود؟

لهم جزاء في الدنيا وفي الآخرة، أما جزاء الخائفين في الدنيا، فقال ربي تبارك وتعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُواْ لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ ۝ وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ الأَرْضَ مِن بَعْدِهِمْ ذَلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ﴾ [إبراهيم].

وجزاء الخائفين في الآخرة ما هو؟ عن شداد بن أوس -رضي الله عنه- أن رسول الله -صلى الله عليه وآله وسلم- قال: ((قال الله عز وجل: وعِزَّتي لا أجمع لعبدي أمنين ولا خوفين؛ إن أمنني في الدنيا أخفته يوم أجمع فيه العباد، وإن خافني في الدنيا أمَّنته يوم أجمع فيه العباد)). أخرجه أبو نعيم في الحلية، وقال الألباني في السلسلة الصحيحة أنه حديثٌ صحيح.

جزاء الخائفين في الآخرة: قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى ۝ فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى﴾. [النازعات] الثواب هو الجنة، لا ليست الجنة فحسب،

بل أخبر ربي تبارك وتعالى: ﴿جَنَّتَانِ﴾، قال ربِّي تبارك وتعالى: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ ۝ فَبِأَيِّ آلَاء رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝ ذَوَاتَا أَفْنَانٍ ۝ فَبِأَيِّ آلَاء رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝ فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ ۝ فَبِأَيِّ آلَاء رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝ فِيهِمَا مِن كُلِّ فَاكِهَةٍ زَوْجَانِ ۝ فَبِأَيِّ آلَاء رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝ مُتَّكِئِينَ عَلَى فُرُشٍ بَطَائِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ وَجَنَى الْجَنَّتَيْنِ دَانٍ ۝ فَبِأَيِّ آلَاء رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝ فِيهِنَّ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ ۝ فَبِأَيِّ آلَاء رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝ كَأَنَّهُنَّ الْيَاقُوتُ وَالْمَرْجَانُ ۝ فَبِأَيِّ آلَاء رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝ هَلْ جَزَاء الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ فَبِأَيِّ آلَاء رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ [الرحمن].

أسأل الله تبارك وتعالى أن يجعلنا من ورثَة جنَّة النعيم، آمين اللهم آمين.

الخاطرة الخامسة

-رُوح الأعمال-

الحمد لله رب العالمين، اللهم لك الحمد كما ينبغي لجلال وجهك وعظيم سلطانك، اللهم صلِّ على محمد وعلى آل محمد، كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم في العالمين، إنك حميد مجيد. أما بعد:

قال الله تبارك وتعالى: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ الدِّينَ ۝ أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ﴾ [الزمر].

أنزل الله تبارك وتعالى القرآن والدين بالحق للعبادة بالإخلاص، فالمطلوب عبادة مُخلَصة لله تبارك وتعالى ﴿فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ الدِّينَ﴾، عبادة مع إخلاص، عبادةٌ بدون إخلاص؛ عملٌ بلا روح.. روح الأعمال الإخلاص، ﴿فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ الدِّينَ﴾، لا بد من عبادة، والعبادة هذه لله وحده لا شريك له (إخلاص العبادة لله تبارك وتعالى).

ولا يُتصوّر وجود إخلاص من غير عبادة، كيف يكون الإنسان مخلِصًا وليس له عمل يؤديه، ليس له عبادة يتقرب بها؟

أنت مخلص؟ - نعم، أين التعبد؟

هل أنت مُتعبِّد؟ - نعم، أين الإخلاص؟

الأمرين مع بعض، إخلاص وعبادة ﴿إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ الدِّينَ ۝ أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ﴾.

وقال ربي تبارك وتعالى: ﴿قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ الدِّينَ﴾، أمر بالعبادة، وأمر بتحقيق الإخلاص؛ لئلا يكون الاهتمام منصب فقط على إقامة العبادة دون تحقيق

روح العبادة وهو الإخلاص، لا، لا بد أن يكون همنا إقامة العبادة وإخلاص العبادة لله تبارك وتعالى، ألا نبتغي إلا الله تبارك وتعالى، ولا نريد إلا رضوانه والتقرب إليه.

قال تبارك وتعالى: ﴿قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا ۚ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ۝ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۝ لَا شَرِيكَ لَهُ ۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾ [الأنعام].

هداني ربّي، ﴿قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ الدين، الإسلام، ﴿دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا ۚ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾.

ثم قال ربي تبارك وتعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۝ لَا شَرِيكَ لَهُ ۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾ الصلاة، والنسك، والتنسُّك، والحياة كل الحياة، والموت.. لله تبارك وتعالى، كل هذا في سبيل الله تبارك وتعالى، وفي رضوان الله تبارك وتعالى، لا بد أن أحيا في سبيل الله وأن أموت في سبيل الله.

وليس هذا بالأمر الاختياري، لا، قال ربي تبارك وتعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۝ لَا شَرِيكَ لَهُ ۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ﴾ فهذا أمر، أمر بماذا؟ أمر بأن تكون الحياة -كل الحياة- لله تبارك وتعالى، وأن يكون موتي كذلك في سبيل الله تبارك وتعالى.

ولذلك هذا الخلل عند بعض الناس، خلل يفكر كيف يحيا في سبيل الله ولكنه لا يفكر كيف يموت في سبيل الله، يتأمل في كثير من العبادات ويسعى في كثير من العبادات ليحققها على الإخلاص، ولكنه لا يبذل مجهودًا في أن يكون موته في سبيل الله، ليس له مجهود في هذا، وهذا خطأ، الحياة في سبيل الله والموت كذلك في سبيل الله، وهذا أمر من الله تبارك وتعالى، ليس لنا الاختيار أن نجعلها في سبيل الله أو في سبيل الشيطان، لا، المطلوب هو في سبيل الله واجتناب سبيل الشيطان.

﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۝ لَا شَرِيكَ لَهُۥ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾ أنا أول من ينفِّذ الأوامر الشرعية، أنا أول المبادرين، أنا أول العابدين، أنا أول المسارعين في رضوان الله تبارك وتعالى، هذا هو المطلوب وهذا هو الكمال.

﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۝ لَا شَرِيكَ لَهُۥ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾ هذا المنهج هو الصراط المستقيم، وهو الدين القيِّم، وهو ملة إبراهيم عليه السلام، وهو دين الإسلام، لذلك قال ربي تبارك وتعالى في الآية السابقة: ﴿قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا ۚ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ۝ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۝ لَا شَرِيكَ لَهُۥ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾ هذه الآيات هي حياة المسلم، هي منهاج المسلم، أن تكون جميع تصرفات الحياة في سبيل الله، ومن أجل الله، وفي مرضاة الله تبارك وتعالى، فهو يفعل المباحات تقرُبًا إلى الله تبارك وتعالى وابتغاء الزلفى لديه، ويفعل المستحبات كذلك، ويقوم بالواجبات كذلك، وينتهي عن المكروهات وعن المحرمات من أجل الله تبارك وتعالى وفي سبيل الله، فكما أن الواجب والمستحب في سبيل الله، كذلك المباح يبتغي به رضوان الله تبارك وتعالى، واجتنابه للمكروه والمحرم كذلك في مرضاة الله تبارك وتعالى، وهو أمرٌ من الله تبارك وتعالى، أمر.. أمر.. لا تسعنا المخالفة.

قال ربي تبارك وتعالى: ﴿قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ الدِّينَ﴾ عبادة وإخلاص، ﴿قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ الدِّينَ ۝ وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ ۝ قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ۝ قُلِ اللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَّهُ دِينِي ۝ فَاعْبُدُوا مَا شِئْتُم مِّن دُونِهِ قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ ۝ لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ النَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ذَٰلِكَ يُخَوِّفُ اللَّهُ بِهِ عِبَادَهُ يَا عِبَادِ فَاتَّقُونِ﴾ [الزمر].

قول الله تبارك وتعالى: ﴿فَاعْبُدُوا مَا شِئْتُم مِّن دُونِهِ﴾ ليس للتخيير وإنما للتهديد، ﴿فَمَن شَاء فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاء فَلْيَكْفُرْ﴾ [الكهف] للتهديد وليست للتخيير، ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات].

وعندما نذكر موضوع الإخلاص، لا بد أن نذكر حديث عمر بن الخطاب -رضي الله عنه- قال: سمعت رسول الله -صلى الله عليه وآله وسلم- يقول: "إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرئ ما نوى، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله، ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها أو امرأة يتزوجها فهجرته إلى ما هاجر إليه"، [الحديث متفق عليه] فذكر النبي ﷺ الهجرة والجهاد أن تكون في سبيل الله تبارك وتعالى.

وقد يكون الغزو في غير سبيل الله، روى الإمام أحمد وأبو داوود -والحديث صحيح- عن معاذ بن جبل -رضي الله عنه- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وآله وسلم-: ((الغزو غزوان -نوعان-: فأما ما ابتُغي به وجه الله وأطاع الإمام وأنفق الكريمة وياَسَر الشريك واجتنب الفساد، فإن نومه وتنبُّهه أجرٌ كله، وأما من غزا فخرًا ورياءً وسُمعةً وعصى الإمام وأفسد في الأرض، فإنه لن يرجع بالكفاف)).

فذكر النبي ﷺ أن الغزو غزوان، الغزو الأول فيه إخلاص، ابتُغي به وجه الله، "وأطاع الإمام": أطاع الأمير، "وأنفق الكريمة": تصدق من المال الطيب، "وياَسَر الشريك": رفيق الجهاد ورفيق السفر ورفيق القتال، "واجتنب الفساد"، إذا تحققت هذه الخمس، قال النبي -صلى الله عليه وآله وسلم-: "فإن نومه وتنبُّهه أجرٌ كله، وأما من غزا فخرًا ورياءً وسُمعةً وعصى الإمام وأفسد في الأرض، فإنه لن يرجع بالكفاف": يعني سيرجع مأثومًا مأزورًا -والعياذ بالله-.

والشهادة في سبيل الله من أعظم القُرَب وأعظم المنازل عند الله تبارك وتعالى، أن يُقتل الإنسان في سبيل الله فهو في أعلى الدرجات، من أعلى المنازل عند الله تبارك وتعالى أن يكون الإنسان شهيدًا في سبيل الله، لكن بشرط الإخلاص، فإذا وُجد الإخلاص في هذا

العمل -وهو أن يُقتل في سبيل الله- كان في درجة عالية عند الله تبارك وتعالى من أعلى الدرجات، وإذا فُقد الإخلاص كان في سحيق جهنم - والعياذ بالله-، فإما أن يرتفع درجات عُليا عند الله تبارك وتعالى، أو أن يهوي في مكان سحيق في النار ويكون من أول من تُسعَّر بهم النار -والعياذ بالله-.

هو عمل واحد، قُتِل في سبيل الله، قُتِل في المعركة، قتله الكفار، فإما أن يرتفع إلى درجات عُليا في عليين، وإما أن يكون أول من تُسعَّر بهم النار، ما الفرق بينهم؟ الفرق هو الإخلاص.

عن أبي هريرة -رضي الله عنه- قال: سمعت النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- يقول عن أول الناس يقضى عليه يوم القيامة: ((رجل استشهد فأُتي به فعرَّفه نِعَمَه فعرفها..)) الله سبحانه وتعالى عرَّف هذا الذي استشهد عرَّفه نعمه، أن الله سبحانه وتعالى أنعم عليه بكذا وكذا وكذا، فأقرّ بها، ((رجل استشهد فأُتي به فعرَّفه نِعَمَه فعرفها، قال: فما عملت فيها؟ قال: قاتلتُ فيك حتى استشهدت، قالوا: كذبت، ولكن قاتلت لأن يُقال هو جريء، فقد قيل، ثم أُمر به فسُحب على وجهه حتى ألقي في النار)). [أخرجه مسلم]

نتيجة الرحلة الطويلة من الهجرة، والجهاد، والجِراح، والمجاهدة.. كان ثمنها: "فقد قيل"، كلمة واحدة وانتهى، وذُهب به إلى جهنم -والعياذ بالله-.

يقول الله تبارك وتعالى كما في الحديث القدسي، عن أبي هريرة -رضي الله عنه- مرفوعًا: أن الله سبحانه وتعالى يقول: ((أنا أغنى الشركاء عن الشرك، من عمل عملًا أشرك فيه غيري، تركته وشركه)).[أخرجه مسلم]، وفي رواية ابن ماجه: ((فأنا منه بريء، وهو للذي أشرك)). فالنية الفاسدة تفسد العمل الصالح، وكذلك النية الصالحة تُلحق صاحبها بالصالحين وإن كان عنده قصور في العمل.

أخرج البخاري ومسلم -وهذه رواية البخاري- عن أنس -رضي الله عنه- قال: رجعنا من غزوة تبوك مع النبي ﷺ، فقال: ((إن أقوامًا بالمدينة خلفنا ما سلكنا شِعبًا ولا واديًا إلا

وهم معنا فيه، حبسهم العذر)). قال النبي ﷺ هذا الكلام وهو عائد من الغزوة، لأن العودة من الغزوة -القفلة من الغزوة- لها أجر، "قفلةٌ كغزوة" [سنن أبي داوود]، فالإنسان مأجور في الذهاب إلى الغزو، ومأجور في الرجوع منه، فأخبر النبي ﷺ وهو عائد من الغزوة أن قومًا في المدينة.. قال عليه الصلاة والسلام: ((ما سلكنا شِعبًا ولا واديًا إلا وهم معنا، حبسهم العذر))، يعني لهم مثل أجر المشارِك تمامًا في الغزوة وهم لم يشاركوا، بسبب ماذا؟ صِدْق نيتهم، ولوجود العذر الحقيقي.

والصحابة -رضوان الله عليهم- الذين لم يستطيعوا اللحاق بالنبي ﷺ والمشاركة مع النبي ﷺ في تبوك، أخبر الله تبارك وتعالى عنهم أنهم تفيض أعينهم من الدمع، وصلوا إلى درجة من الصدق عظيمة، إلى درجة أن يبكي أنه لم يستطع أن يشارك مع المجاهدين ومع المقاتلين في سبيل الله، فأثابهم الله تبارك وتعالى أجرًا عظيمًا، جعلهم كأنهم مشاركين للغزاة، أعطاهم مثلما أعطى الغزاة، كما قال النبي -صلى الله عليه وآله وسلم-: ((ما سلكنا شِعبًا ولا واديًا إلا وهم معنا، حبسهم العذر)).

الإخلاص إذا حققه العبد أعانه الله تبارك وتعالى وحفظه، روى الإمام الترمذي عن عائشة -رضي الله عنها- قالت: قال رسول الله -صلى الله عليه وآله وسلم-: ((من التمس رضا الله بسخط الناس كفاه الله مؤونة الناس، ومن التمس رضا الناس بسخط الله وَكَلَه الله إلى الناس)). أمرٌ من الخير والصلاح والطاعة تريد أن تفعله ثم تقول: لا، الناس سيقولون كذا، سيتهمونني بكذا، سيقاطعني فلان، سأعمل كذا سأعمل كذا، إيش قال؟ قال النبي ﷺ: ((وَكَلَه الله إلى الناس))، إذا ترك العمل من أجل الناس وَكَلَه الله إليهم، وإذا وافق مراده مراد الله تبارك وتعالى وعمل بطاعة الله تبارك وتعالى، قال: ((كفاه الله مؤونة الناس)).

وكتب عمر بن الخطاب -رضي الله عنه- لأبي موسى الأشعري في كتاب القضاء، قال: "فمن خَلُصت نيته في الحق ولو على نفسه؛ كفاه الله ما بينه وبين الناس" اسمع إلى هذا الكلام: "فمن خلصت نيته في الحق ولو على نفسه؛ كفاه الله ما بينه وبين الناس، ومن تزيَّن بما ليس فيه؛ شانه الله"، أي: أعابه الله تبارك وتعالى.

قال ابن القيم -رحمه الله- في شرحه لهذا الكلام في [إعلام الموقعين]، قال: "هذا شقيق كلام النبوة، وهو جديرٌ أن يخرج من مشكاة المحدَّث الملهم، وهاتان الكلمتان من كنوز العلم، ومن أَحْسَنَ الإنفاق منهما نفع غيره وانتفع غاية الانتفاع". قول عمر بن الخطاب -رضي الله عنه-: "فمن خلصت نيته في الحق ولو على نفسه؛ كفاه الله ما بينه وبين الناس، ومن تزيَّن بما ليس فيه؛ شانه الله"، تأمّل، تأمّل في هذا الكلام، تأمّل فيه كثيرًا، تجد فيه من العبر وتجد فيه من الحقائق الكثير.

كتب سالم بن عبد الله بن عمر بن الخطاب، إلى عمر بن عبد العزيز -رحمه الله تعالى- قال: "اعلم أن عون الله تعالى للعبد على قدر نيته؛ فمن تمّت نيته تمّ عون الله له، ومن نقصت نقص بقدره".

وأقوال العلماء في الإخلاص كثيرة ومهمة، قال ابن مبارك -رحمه الله-: "رُبَّ عمل صغير تُكثِّره النية، ورُبَّ عمل كثير تُصغِّره النية"، يعمل الإنسان أعمالًا كثيرة وفي الحقيقة هي صغيرة، لماذا؟ لأن النية صغيرة، أو تكون الأعمال صغيرة وتكون نتيجتها كبيرة أو تكون عند الله تبارك وتعالى كبيرة، لماذا؟ بسبب النية.

لذلك قال ابن القيم -رحمه الله-: "إن الأعمال لا تتفاضل بصورها ولا بأعدادها، وإنما تتفاضل بتفاضل ما في القلوب، فتكون صورة العملين واحدة وبينهما من الفرق كما بين السماء والأرض".

قال أيوب السختياني -رحمه الله-: "تخليص النيات على العُمَّال أشدُّ عليهم من جميع الأعمال" أن يكون العمل خالصًا لله تبارك وتعالى فيه صعوبة، يحتاج إلى مجاهدة، أكثر من المجاهدة على قيامه بالعمل، قد يقوم الإنسان بالعمل ولكن في قلبه حظ للناس أو للخلق، فتصفيتها لله تبارك وتعالى تحتاج إلى مجاهدة وإلى متابعة وإلى مراقبة.

وينقلون عن بعض الصالحين أنه قال: ما أخلص عبدٌ قط أربعين يومًا إلا ظهرت ينابيع الحكمة من قلبه ولسانه. ذكر الشيخ ابن تيمية في [الفتاوى الكبرى] هذا الكلام،

قال: "يُذكر أن بعض الناس بلغه أنه من أخلص لله أربعين صباحًا، تفجَّرت ينابيع الحكمة من قلبه على لسانه، فأخلص -هذا الشخص أخلص- فأخلص في ظنِّه أربعين يومًا لينال الحكمة -من أخلص أربعين يومًا تفجرت ينابيع الحكمة، فقال: أنا سأخلص لله تبارك وتعالى أربعين يومًا، فظن نفسه مخلِصًا في أربعين يومًا- فأخلص في ظنِّه أربعين صباحًا لينال الحكمة، فلم ينلها -ما حصَّل شيء-، فشكى ذلك إلى بعض حكماء الدين، فقال: إنك لم تخلِص لله سبحانه وإنما أخلصت للحكمة"، ثم قال ابن تيمية: "وكذلك قوله ﷺ: ((ما تواضع أحدٌ لله إلا رفعه الله))، فلو تواضع ليرفعه الله سبحانه لم يكن متواضعًا، فإنه يكون مقصوده الرِّفعة، وذلك ينافي التواضع".

ويذكرون عن أبي يعقوب السوسي -رحمه الله- أنه تكلم عن العابدين، عن الناس، قال -رحمه الله-: "متى شهدوا في إخلاصهم الإخلاص، احتاج إخلاصهم إلى إخلاص"، أي متى رأينا أننا مخلصين والحمد لله، أما أنا فقد أؤدي الأعمال على تمامها وأنا إن شاء الله من المخلِصين وأنا كذا .. رؤية الإنسان نفسه مخلِصًا يحتاج أن يُراجع، هذا عُجب وهذه تزكية وليراجع إخلاصه، "متى شهدوا في إخلاصهم الإخلاص، احتاج إخلاصهم إلى إخلاص".

وفّقنا الله لطاعته وصرف عنا معاصيه، إنه على كل شيء قدير.

الخاطرة السادسة:
-زاد من ضياء-

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، اللهم لك الحمد كما ينبغي لجلال وجهك وعظيم سلطانك، اللهم صلِّ على محمد وعلى آل محمد، كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم، وبارك على محمد وعلى آل محمد، كما باركت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم إنك حميد مجيد، أما بعد:

المؤمن في الحياة يتعرض لأحوال كثيرة، وظروف وأقدار ومشاكل، وأشياء كثيرة يمر بها في الحياة، وهذا الذي يمر به المؤمن في الحياة من أحداث وأحوال وغيرها لا يخلو من أمرين:

إما أن هذه الأمور توافق هواه ورغبته، أشياء يحبها ويرغب فيها وتوافق ما لديه من رغبة ومن مصلحة فيما يراه؛ العبد المؤمن أمام هذا الأمر يحتاج إلى الصبر فيه، كيف يصبر على الشيء الذي يوافق هواه ورغبته؟

لا يركن إليه، ولا ينهمك في التلذذ به، ويراعي حق الله تبارك وتعالى؛ فإن لم يضبط نفسه أخرجه تعامله مع ما يحب إلى البطر والطغيان.

حتى قال بعض العلماء: المؤمن يصبر على البلاء، ولا يصبر على العافية إلا صِدّيق. يعني العافية والشكر وأداء ما أوجبه الله تبارك وتعالى في حال الرخاء وفي توالي النعم، والحفاظ عليها بطاعة الله تبارك وتعالى ومراقبته واستخدامها في طاعة الله تبارك وتعالى.. هذه تحتاج إلى إيمان قوي؛ لأن الغفلة تتطرق إلى النفس أكثر من تطرقها في حال البلاء والشدة. هذا الأمر الأول الذي يمر بالإنسان هو ما يوافق هواه.

وهناك أحداث وتكاليف تخالف الهوى، حظ نفس فيها قليل، ولكن لا بد للإنسان أن يفعلها؛ هذا الأمر يحتاج أيضا إلى صبر..

خــالِف هَواكَ إذا دَعــاكَ فَلَرُبَّ خَيرٍ في مُخالَفَةِ الهَوى

فالإنسان المؤمن باستمرار بحاجة للصبر، سواء فيما يوافق هواه أو ما يخالف هواه؛ إذن الحياة كلها قائمة على الصبر.

والله سبحانه وتعالى يبتلينا ويختبرنا ليختبر منا الصبر، الله سبحانه وتعالى يريد أن يرى من عباده المؤمنين الصبر، يريد أن يرى منهم هذه العبادة.. قال ربي تبارك وتعالى: ﴿وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ﴾ [الفرقان]، فالله سبحانه وتعالى عندما يبتلينا ببعضنا يريد منا أن نريه الصبر منا.

قال ربي تبارك وتعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ﴾ [محمد]، سبحان الله، والله آية عظيمة..! الله سبحانه وتعالى قدر علينا الابتلاء لا محالة حتى يرى منا الجهاد، ويرى منا الصبر، ويبلو أخبارنا تبارك وتعالى من المدعي من الصادق؛ هنا قوم كثير يدعون أنه إذا تيسر لهم الجهاد أنهم سيجاهدون، وأنهم إذا تعرضوا للفتن والبلايا أنهم سيصبرون؛ والله سبحانه وتعالى يبتلينا ويبتلي أخبارنا ليعلم المجاهدين منا والصابرين، فالله سبحانه وتعالى يريد أن يرى منا عبادة الصبر، وهي غاية من غايات التعبد والتكليف.

وأخبرنا ربنا تبارك وتعالى أن الكفار والأعداء يتواصون فيما بينهم على الصبر على ما هم فيه من الكفر ومن الإلحاد ومن أذية المؤمنين، قال ربي تبارك وتعالى عن الكفار: ﴿وَانطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلَىٰ آلِهَتِكُمْ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ﴾ [ص]، يتواصون فيما بينهم على الصد عن دين الله، وعلى البقاء على الشرك والإلحاد، وعلى محاربة شرع الله ودين الله.

وقال ربي تبارك وتعالى عن الكافرين: ﴿وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا ۝ إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ آلِهَتِنَا لَوْلَا أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا﴾ [الفرقان] يتفاخرون أنهم

ما زالوا متمسكين بالكفر وبالعصيان بسبب تواصيهم بالصبر على الشرك والإلحاد ومخالفة الشريعة ومحادة أمر الله تبارك وتعالى.

أخبرنا الله تبارك وتعالى عن حال أعدائنا وعن الكفار وما هم فيه، وأمرنا الله تبارك وتعالى بالعمل الصالح والتواصي عليه، وأمرنا بالصبر والتواصي به، قال ربي تبارك وتعالى: بسم الله الرحمن الرحيم، ﴿وَٱلۡعَصۡرِ ۝ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَفِي خُسۡرٍ ۝ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلۡحَقِّ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلصَّبۡرِ﴾. [العصر]

حتى لا أكون من الخاسرين، وحتى أنت أيضًا لا تكون من الخاسرين؛ لا بد أن أوصيك بالصبر وتوصيني به، لا بد أن نقوم بالحق وبالعمل الصالح، نتواصى به، ونتواصى بالصبر، لا يكفي أن نكون قائمين بالحق، لا يكفي حتى ننجو من الخسران، فلا بد أن أوصيك بالصبر على الطاعة والإيمان، وأنت أن توصيني كذلك بالصبر على الطاعة والإيمان والعمل الصالح.

فنحن بحاجة في حياتنا إلى زاد، الزاد هو الصبر، الصبر ضياء، فنحتاج إلى زاد من هذا الضياء الذي يضيء لنا الطريق.

لماذا الصبر؟ لماذا نحتاج إلى الصبر؟

الصبر الضياء كما قال النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- كما في الحديث عن أبي مالك الأشعري -رضي الله عنه- أن رسول الله -صلى الله عليه وآله وسلم- قال: ((الطهور شطر الإيمان، والحمد لله تملأ الميزان، وسبحان الله والحمد لله تملآن ما بين السماء والأرض، والصلاة نور، والصدقة برهان، والصبر ضياء، والقرآن حجة لك أو عليك، كل الناس يغدو: فبائعٌ نفسَه فمعتِقُها أو مُوبِقها)). الحديث أخرجه الإمام مسلم.

أخبر النبي -صلى الله عليه وسلم- عن هذا الصبر أنه ضياء، يُضيء ويُبين ويُوضح، إذا صبرنا تنزّل علينا الضياء؛ فنبصر الحق والباطل.

لماذا نحتاج للصبر؟ نحتاج للصبر لضمان النصر في المعركة، في معركتنا مع الكفار نحتاج للصبر، والله سبحانه وتعالى إذا رأى منا الصبر أمدنا بمدده تبارك وتعالى، قال ربي جل جلاله: ﴿بَلَىٰٓ إِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ﴾ [آل عمران] صبر وتقوى: يساوي مدد من الله تبارك وتعالى وعون.

﴿بَلَىٰٓ إِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا﴾ يعني ويأتيكم الكفار في ساعتكم هذه، الله سبحانه وتعالى يقول: ﴿يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ﴾ يعني مُعلَّمين، ليس بملك واحد، بخمسة آلاف! الآن يأتون الملائكة إذا كان عندكم صبر وتقوى!

إذا تحلّينا بالصبر وبالتقوى أمدنا الله تبارك وتعالى في معركتنا بخمسة آلاف من الملائكة! ملك واحد هذا يكفي لتدمير الأرض كاملة، لأخذ القرى بما عليها ومن فيها، ولكن الله تبارك وتعالى يمد المؤمنين بكم؟ بخمسة آلاف!

أخبرنا النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- أن النصر مع الصبر، فالنصر والصبر حليفان مع بعض، قال النبي ﷺ كما في الحديث: عن أنس بن مالك -رضي الله عنه- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وآله وسلم-: ((النصر مع الصبر، والفرج مع الكرب، وإن مع العسر يُسرًا، إن مع العسر يُسرا)). الحديث في صيح الجامع. هذا كلام من؟ هذا كلام الصادق المصدوق صلى الله عليه وآله وسلم-، والله الذي لا إله إلا هو لئن صبرنا واتقينا لكان النصر حليفنا.

لماذا نحتاج الصبر؟ لمعية الله للصابرين، الله مع الصابرين، الله تبارك وتعالى معنا إن كنا من الصابرين، ومعية الله تبارك وتعالى تتضمن الحفظ والنصر والتأييد، قال ربي تبارك وتعالى: ﴿وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [الأنفال]، الله مع الصابرين.. لا إله إلا الله!

عندما يكون الله معك، والله تبارك وتعالى مؤيدك، والله سبحانه وتعالى أخبر أنه مع الصابرين؛ فكن صابرًا يكون الله تبارك وتعالى معك.

لاحظ أن الكفار والمرتدين يفاخرون بأن معهم الحملة الصليبية، أن معهم أمريكا، أن معهم طائرات بلا طيار، أن معهم الجيوش، والبارجات والطائرات والقنابل والأسلحة.. وأنهم كثير، وأن جندهم، وأنهم وأنهم وأنهم... ويزعمون أنهم منصورون، وأنت.. الله معك إن كنت من الصابرين، فتحتاج للصبر لمعية الله لك.

لماذا نحتاج للصبر؟ نحتاج الصبر لأن الله سبحانه وتعالى يجازي الصابرين بغير حساب، قال ربي تبارك وتعالى: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر]، ما معنى أن أجرهم بغير حساب؟ أحد معنيين: إما أنهم يدخلون الجنة ولا حساب عليهم، فهم يجازون وليس عليهم حساب، أو أنهم يجازون جزاءً كثيرًا لا حساب له. وهذا رأي الجمهور، أنهم يجازون جزاءً عظيمًا لا حساب له. فنحتاج للصبر لأن جزاء الصبر بغير حساب.

ونحتاج للصبر لأن الله يحب الصابرين، قال ربي تبارك وتعالى: ﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ﴾ [آل عمران]، والله يحب الصابرين.. تريد أن يحبك الله تبارك وتعالى؟ تريد أن تكون محبوبًا لله تبارك وتعالى؟ اصبر.. اصبر والله سبحانه وتعالى يحبك.. إن الله يحب الصابرين، قال ربي تبارك وتعالى: ﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ﴾.

والصبر يا أخي -بارك الله فيك- أنواع:

الأول: الصبر على طاعة الله تبارك وتعالى. نحتاج أن نصبر على الطاعات، على فعل الطاعات.

والصبر على الطاعة ثلاث مراحل: مرحلة الصبر قبل العبادة. قبل أن نفعل العبادة، قبل أن نفعل الطاعة، وتحتاج إلى تصحيح، وإلى إخلاص، وإلى صبر على الشوائب والرياء، قبل أن نفعل الطاعة من الصلاة، والذكر، والصيام، والجهاد، والحراسة، والخدمة، والقتال، وتنظيف السلاح، وطاعة الأمير.. وهذه الأمور كلها تحتاج قبلها إلى تصحيح النية، أن تكون نيتي لله تبارك وتعالى، قتالي في سبيل الله، خروجي من أجل الله تبارك وتعالى، طاعتي لله تبارك وتعالى، فتحتاج قبل العمل إلى إصلاح النية، الصبر على إصلاح النية.

وفي حال العبادة: أن لا يغفل عن الله تبارك وتعالى في أثناء العبادة، ولا يتكاسل عن تحقيق الآداب، والسنن، والإخلاص، ومتابعة النبي -صلى الله عليه وآله وسلم-؛ لأن الإنسان أثناء العبادة قد يغفل وقد ينسى، فيحتاج إلى صبر، وتتذكر وتصبر.

والحالة الثالثة: بعد العمل، وهي الصبر عن إفشائه والتظاهر به لأجل الدنيا والسمعة.. قد يكون الإنسان مثلًا شارك في معركة، أو شارك في غزوة، ثم بعد الغزوة يقول أنا حصل مني كذا، وفعلت كذا.. ويُظهر عمله.. فهذا يحتاج إلى حرص، يحتاج إلى حرص وإلى يقظة، لماذا؟ لأن الإنسان قد يصاب بالعجب، أو يصاب بالفخر، أو حب الثناء من الناس، أو المكانة في قلوب الناس؛ وهذا أمر يُفسد العمل.

نعم يحتاج الإنسان أحيانًا أن يذكر المعركة وما حدث فيها، وأن كان كذا وكذا.. لكن يحاول قدر المستطاع أن لا يذكر دوره، وإذا كان لا بد فليذكر دوره ولكن يحرص على قلبه، لا يُفسد الشيطان له العمل؛ فقد صبر في بداية العمل، وهاجر لله تبارك وتعالى، وخاض المعركة، وتعب، وكذا.. ثم في الأخير يجعلها لغير الله! هذا أمر خطير، خطير، خطير، يحتاج إلى تنبه، وإلى تذكر، وإلى يقظة؛ حتى لا تفسد أعمالنا. هذا الأمر الأول هو الصبر على طاعة الله.

الصبر الثاني: هو الصبر عن معصية الله تبارك وتعالى. لنا رغبات، ولنا شهوات، وفينا تطلع لأشياء كثيرة، لكن لا بد أن نصبر على كف أنفسنا عن المحرمات.. نغضب لأنفسنا، نرغب في بعض الممنوعات أو بعض المحرمات، نشتهي بعض الأشياء التي نهى الله تبارك وتعالى عنها؛ فنصبر على كف النفس عن الآثام والمعاصي، نصبر على أشياء كثيرة من الآثام والمعاصي، لا بد أن أكون صابرًا وأتركها لله تبارك وتعالى.

الثالث: الصبر على امتحان الله، على أقدار الله تبارك وتعالى. وهذا أمر لا شأن للإنسان فيه، إنما هو قدر من الله تعالى.

الصبر على المصائب في النفس والأهل والمال، قد يبتلي الله تعالى العبد بمرض، أو بأذى، أو بجرح في نفسه، أو في أهله، أحيانًا لا يكون الجرح في الإنسان، لا، قد يكون الجرح في أولاده، أو في زوجته، هو يصبر إذا كان الجرح في نفسه، أما إذا جُرحت زوجته أو ولده فتجد حظه من الصبر قليل، وأحيانًا لا، يسلم الجميع، تسلم الجماعة، ولكن الجماعة تخسر الأموال، هذه تحتاج إلى صبر، فيصبر على أقدار الله وعلى المصائب التي كتبها الله تبارك وتعالى عليه.

يصبر إذا طالت فترة التطبب والعلاج، إذا أصيب بجرح، أو بمرض، يصبر على هذا، يصبر على التعب والمشقة المصاحبة للطاعة والجهاد، تحتاج إلى صبر.. ويصبر على ما يصيب الإنسان في أهله وماله، هذا أمر يحتاج إلى صبر، وهو الصبر على المصائب التي كتبها الله تبارك وتعالى على ابن آدم.

ثم إذا لم تصبر ماذا ستفعل؟ أصابك الله تبارك وتعالى بأذى أو بجرح أو بألم في جسدك أو أهلك أو مالك، ولم تصبر، ماذا ستفعل؟ لن تفعل شيئًا، كل ما تفعله أنك تخسر الأجر، لن يتغير من واقع الأمر شيء، ستبقى أنت بمرضك وسقمك، وسيبقى أهلك بمرضهم

وسقمهم، أو فقرهم أو فاقتهم أو ضيقهم، وما الذي استفدته؟ لم تستفد شيئًا سوى أنك خسرت الأجر عند الله تبارك وتعالى.

ثم الأمر الأخير من الصبر على امتحان الله تبارك وتعالى: الصبر على أذى الناس، تجد من الناس أذى، وتجد من الناس تعامل سيء، وتجد من الناس مقاتلة، واستهزاء، وإثارة شبهات، وشائعات، وسخرية، وهمز، ولمز.. تحتاج إلى صبر، ما هو الصبر الذي تريده؟ تريد الصبر بالقيام بأمر الله تبارك وتعالى معهم، فمن أمرك الله تبارك وتعالى بقتاله؛ تصبر على قتاله، ومن أمرك الله تبارك وتعالى بمواجهته بالحجة والبيان؛ تصبر على البيان له وأمره بالمعروف ونهيه عن المنكر، ومن أمرك الله تبارك وتعالى بخفض الجناح له والذل له؛ تصبر كذلك على خفض الجناح وعلى الذلة للمؤمنين، يعني تحتاج إلى الصبر على أذى الناس.

ما الذي يعينني على الصبر..؟

نعم أريد الصبر، لكن نفسي الصبر عليها شاق وصعب، ما الذي يعينني على الصبر؟

الذي يعينني على الصبر: ملاحظة حسن الجزاء، عندما ترى ما أعد الله تبارك وتعالى للصابرين، وما ثواب الصابرين، وتتطلع إلى ما أعده الله لك.. هذا لك يا عبدي إن صبرت.. لاحظ مع الحديث المتفق عليه، أخرجه البخاري المسلم: عن عبدالله بن مسعود –رضي الله عنه– أن رسول الله –صلى الله عليه وآله وسلم– قال: ((ما من مسلم يصيبه أذى، شوكة فما فوقها؛ إلا كفّر الله بها سيئاته، وحُطت عنه ذنوبه، كما تَحُطُّ الشجرة ورقها)).

إذن هذه الآلام والمكاره التي تصبر عليها يُكفر الله بها السيئات، وتُحط بها الذنوب.. تلاحظ شوكة، شوكة.. فكيف إذا كانت طلقة، أو إذا كانت جرح، أو إذا كانت ألم..! بلا

شك أنها تكفر من الذنوب الكثير، وليس تكفر الذنوب فحسب، بل الله سبحانه وتعالى يرغبك في الصبر لتنال ما عنده من الأجر العظيم.

ليس الصبر على الأذى الجسدي فحسب، بل الصبر على الأذى النفسي، التألم النفسي في الصدر، إذا صبرت عليه لك من الأجر العظيم عند الله تبارك وتعالى، وأذكرك بالحديث، حديث حسن رواه أبو داود والترمذي: عن معاذ بن أنس –رضي الله عنه–، أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم –اسمع معي الحديث لو سمحت، انتبه–، قال –صلى الله عليه وآله وسلم–: ((من كظم غيظًا وهو قادر على أن يُنفذه؛ دعاه الله سبحانه وتعالى على رؤوس الخلائق يوم القيامة، حتى يخيره من الحور العين ما شاء)).

لاحظت عِظَم الجزاء على ماذا؟ كظمت غيظ! أغاظك أحد إخوانك، سواء في المعركة، أو أخوك المسلم، حصل غيظ، وتستطيع أن تبطش بهذا الذي أغاظك، ولكنك كظمت غيظك، كظمت فقط، ولم تنفذ ما يدور بخاطرك من البطش بهذا المسلم.. ما هو الجزاء؟

الله تبارك وتعالى يجعل لك مكانة عظيمة، يناديك يوم القيامة على رؤوس الخلائق من بين الناس كلهم، فلان بن فلان، أنت فلان بن فلان، تصعد، تفضل، ماذا؟ يخيرك الله سبحانه وتعالى من الحور العين ما شئت! هذه الحور العين اختر منها ما شئت، لا إله إلا الله! بِمَ حصلت على هذه المنزلة؟ بماذا حصلت؟ حصلت عليها بالصبر وكظم الغيظ، هذا الأمر لك، إذا أردت الحور العين وأن تخير منها ما شئت يوم القيامة؛ العبادة سهلة، ما هي العبادة؟ كظم الغيظ.

من الأشياء التي تعيني على الصبر، قلت الأمر الأول: هو ملاحظة حسن الجزاء..

الأمر الثاني: انتظار الفرج، انتظار الفرج وترقبه يخفف من حمل المشقة، ولا سيما عند قوة الرجاء والأمل في الله تبارك وتعالى، فإن الإنسان يجد في انتظار الفرج من الله تبارك

وتعالى ما هو من خفي الألطاف، وما هو فرج معجل، وانتظار الفرج يُفهِم معنى اسم الله تبارك وتعالى اللطيف..

الإنسان الأسير وهو في الأسر وينتظر الفرج من الله، الله الذي يفك أسر الأسير، الله الذي يشفي الجروح هو الله تبارك وتعالى، الذي يشفي المريض هو الله تبارك وتعالى، ماذا يفعل الطبيب؟ يعطيك الدواء ثم ينام ملئ عينيه، وتبقى أنت وقلبك مع الله..

هذه الحالة من انتظار الفرج والأمل بالله تبارك وتعالى، والتعلق به، والله إن فيها من الأُنس ما يثلج الصدر! وتشعر في تلك الساعة من الإيمان لحظات عجيبة، بسبب ماذا؟ انتظار الفرج من الله تبارك وتعالى والتعلق بالله وحده، يورثك هذا الثقة بالله تبارك وتعالى، والقرب منه، والأُنس به تبارك وتعالى.

وتتحقق بمعنى "لا حول ولا قوة إلا بالله"، وتتحقق بمعنى "إنا لله وإنا إليه راجعون"، وتتحقق بمعنى "حسبنا الله ونعم الوكيل"، متى تتحقق هذه؟ في أحوال كثيرة، منها عند انتظار الفرج، سواء في ألم جسدي، أو في ألم معنوي.. إذا كنت في المعركة ومنطلق للجهاد والقتال في سبيل الله، وأنت تنتظر الفرج من الله تبارك وتعالى والنصر والمدد من الله تبارك وتعالى، أو كنت في حراسة، أو في رباط، أو كنت في طاعة من الطاعات، أو في ألم من الآلام.. وقلبك مرتبط بالله تبارك وتعالى متعلق به، كان لك حالة إيمانية عظيمة.

الأمر الثالث مما يعين على الصبر: تهوين البلية. يعني أن ترى البلية هذه يسيرة، وأن البلية هذه لا شيء، وأنها قليلة.

أنت في ساعة البلاء ترى المشكلة وترى الألم عظيم جدًا، ترى بأنه لم يُبتلَ أحد بمثل ما ابتليت به.. حتى تُهوّن هذه المصيبة عليك، عليك أنت نفسك شخصيًا أنت.. عُد نِعم الله عليك، قل نعم أنا الآن عندي مشكلة، ما هي المشكلة؟ أبي جريح، أو مشكلة أبي أسير، أو مشكلة أبي مريض، أو عندي الهم الفلاني، أو عندي المشكلة الفلانية.. يعني

عدها.. طيب عديتها؟ ممتاز جدًا، أحسنت، الآن عُد نعم الله تبارك وتعالى.. واحد، اثنين، عدها.. تستطيع أن تعدها؟ لا تستطيع، هذه النعم كلها، وهذا الألم الوحيد.. سبحان الله العظيم! إذن هذا البلاء يغوص في بحر النعم، إذن هذه البلية لا شيء أمام تلك النعم التي أنعم الله تبارك وتعالى بها عليك.

ثم تذكر سابق النعم، كم من المرات مرضت وشفاك الله تبارك وتعالى، وكم قد وقعت في مشكلة وفي ورطة والله سبحانه وتعالى نجاك، وكم أُصبت بهمم وغم وفرجه الله تبارك وتعالى عنك، وكم ظننت من أمور أنها قاصمة لك والله سبحانه وتعالى جعل لك منها فرجًا ومخرجًا، وما تعودنا من الله تبارك وتعالى إلا اللطف والستر، والله سبحانه وتعالى سيلطف في هذه، وسيستر علينا، وسينجينا؛ إذن تهون البلية.

يقال أن بعضهم رأى رجلًا يشكو إلى آخر من الفقر والضرورة والحاجة، فقال: يا هذا، تشكو من يرحمك إلى من لا يرحمك؟! الفرج بيد الله تبارك وتعالى، والملك بيد الله تبارك وتعالى، والله هو المتصرف في الأمور، ماذا يفعل لك فلان أو فلان؟! فلان أو فلان أنفاسه بيد الله، خفقان قلبه بيد الله، عواطفه ومشاعره وأفكاره بيد الله تبارك وتعالى، ماذا يفعل لك!

وإذا عَرَتْك بَلِيَّةٌ فاصـــبِرْ لها	صَـــبرَ الكريمِ؛ فإنَّه بك أعلَمُ
وإذا شَـكوتَ إلى ابنِ آدَمَ إنَّما	تَشـــكو الرَّحيمَ إلى الذي لا

ثمرات الصبر على أقدار الله المؤلمة..

الأمر الأول: تكفير السيئات.

عن أبي سعيد الخدري وأبي هريرة -رضي الله عنهما-، عن النبي -صلى الله عليه وآله وسلم-: ((ما يصيب المسلم من نصب، ولا وصب، ولا هم، ولا حزن، ولا أذى، ولا غم، حتى الشوكة يشاكها؛ إلا كفَّر الله بها من خطاياه)). والحديث في صحيح البخاري ومسلم متفق عليه.

(ما يصيب المسلم من نصب -تعب-، ولا وصب -مرض-، ولا هم، ولا حزن، ولا غم، حتى الشوكة يشاكها؛ إلا كفَّر الله بها من خطاياه)، سبحان الله العظيم!

وعن أبي هريرة -رضي الله عنه- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وآله وسلم-: ((ما يزال البلاء بالمؤمن والمؤمنة في نفسه وولده وماله، حتى يلقى الله وما عليه خطيئة)) رواه الترمذي، وقال حديث حسن صحيح. وهو حديث إن شاء الله صحيح.

((ما يزال البلاء بالمؤمن والمؤمنة في نفسه وولده وماله، حتى يلقى الله وما عليه خطيئة)) تستعجب كيف ذهبت هذه الذنوب، كيف اختفت؟ بسبب ما ابتلاك الله تبارك وتعالى به من الآلام والمصائب في الدنيا، تُكفر الذنوب، تُكفر الذنوب، حتى تصل إلى الله تبارك وتعالى وأنت أبيض نظيف ناصع ليس عليك خطيئة. هذا الأمر الأول هو تكفير الذنوب.

الأمر الثاني: رفع الدرجات.

إذا صبرت؛ رفع الله تبارك وتعالى درجتك، عن عائشة -رضي الله عنها- قالت: قال رسول الله -صلى الله عليه وآله وسلم-: ((ما يصيب المؤمن من شوكة فما فوقها، إلا رفعه الله بها درجة، أو حط عنه بها خطيئة)). رواه مسلم.

ولاحظ معي الحديث التالي، حديث حسن إن شاء الله، رواه أبو يعلى وابن حبان والحاكم: عن أبي هريرة -رضي الله عنه-، قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وآله وسلم-: ((إن الرجل -انتبه معي لو سمحت، انتبه- إن الرجل ليكون له عند الله المنزلة، فما يبلغها

بعمل، فما يزال الله يبتليه بما يكره حتى يبلغه إياها)). الله سبحانه وتعالى يريد لك درجة عالية في الجنة، أعمالك الصالحة لا تنهض بك إلى أن تصل إلى تلك الدرجة، فيبتليك الله تبارك وتعالى ليرفعك إلى تلك الدرجة.

أيضًا حديث أبي داوود، عن خالد بن محمد عن أبيه عن جده –ضي الله عنه– قال: سمعت رسول الله –صلى الله عليه وآله وسلم– يقول: ((إن العبد إذا سبقت له من الله منزلة لم يبلغها بعمله، ابتلاه في جسده، أو في ماله، أو في ولده، ثم صبّره على ذلك، حتى يبلغه المنزلة التي سبقت له من الله تعالى)). الحديث في صحيح أبي داوود وقال الألباني بأنه حديث صحيح.

ما هو السبيل إلى الصبر؟ كيف أصبر؟ من الذي يجعلني أصبر..؟

الصبر من الله، الله سبحانه وتعالى هو الذي يصبرنا، قال ربي تبارك وتعالى: ﴿وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ﴾ [النحل]، الله هو الذي يصبرني، إذن أسأل الله تبارك وتعالى أن يصبرني، أنا ما أستطيع بنفسي، أنا بنفسي عاجز، أنا بنفسي ضعيف، ما أستطيع أن أصبر نفسي، ولا يستطيع أحد أن يصبرني؛ إلا أن يصبرني الله تبارك وتعالى، فأسأل الله تبارك وتعالى أن يصبرني.. "اللهم ارزقني الصبر" توكلٌ على الله تبارك وتعالى في الصبر.

أشد أنواع الصبر:

الكف عن حديث النفس بالآثام، أشد أنواع الصبر أن تقطع حديث النفس بالآثام، قال ابن القيم –رحمه الله تعالى–: "واعلم أن أشد أنواع الصبر الكف عن حديث النفس

بالآثام، ولا علاج لهذا إلا قطع العلائق، وجعل الهم همًا واحدًا، وصرف الفكر إلى ملكوت السماوات والأرض، وعجائب صنع الله تعالى، وجميع أبواب معرفة الله تعالى، والأوراد المتواصلة من القراءة، والأذكار، والصلوات، ويحتاج مع ذلك إلى تكليف القلب الحضور، والقلب مزرعة فينبغي للعبد أن يطهر قلبه من حشيش الشهوات، ويبذر فيه الإخلاص، ويعرضه لمهاب ريح الرحمة، كما يُقوِّ انتظار الأمطار في أوقات ظهور الغيم، كذلك انتظار النفحات الربانية في الأوقات الشريفة، وعند اجتماع الهم ونشاط القلوب، كيوم عرفة، ويوم الجمعة، وفي رمضان، والهمم والأنفاس أسباب لاستدرار رحمة الله تعالى بحكمته وتقديره".

أسأل الله تبارك وتعالى أن يختم لنا بخير، إنه على كل شيء قدير.

الخاطرة السابعة:

-عينُ الكرامة-

اللهم لك الحمد كما ينبغي لجلال وجهك وعظيم سلطانك، اللهم صلِّ على محمد وعلى آل محمد، كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم، وبارك على محمد وعلى آل محمد، كما باركت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم في العالمين، إنك حميد مجيد، أما بعد:

المؤمن يحب الله تبارك وتعالى، ويحب التقرب إلى الله تبارك وتعالى، يحب الله، ويحب الأعمال الصالحة التي تقربه إلى الله، والمؤمن يبغض الكفر والنفاق والعصيان، ويكره المعاصي، وإذا اقترف ذنبًا يكره ذلك الذنب، ويكره تلك الحال، وسرعان ما يفيء بالتوبة إلى الله تبارك وتعالى، ويبقى الإنسان المؤمن في سيره إلى الله تبارك وتعالى يتنازع بين الطاعة والمعصية، ويود الإنسان أن يبقى على أمر الله تبارك وتعالى منهجًا وسلوكًا، لا يريد الانحراف، ويكره ويخاف أن يزل عن الاستقامة عن أمر الله تبارك وتعالى.

وأعظم أمر يُكرم الله تبارك وتعالى به عباده الصالحين أن يرزقهم الاستقامة على أمره، وقد جاء عند كثير من علماء السلوك القول بأن الاستقامة عين الكرامة، وقال ابن القيم –رحمه الله–: سمعت شيخ الإسلام ابن تيمية –رحمه الله– يقول: "أعظم الكرامة لزوم الاستقامة".

أعظم ما يكرم الله تبارك وتعالى به عبده أن يجعله مستقيمًا على أوامره، أعظم ما يكرم الله تبارك وتعالى به عباده أن يجعلهم سائرين على مراده تبارك وتعالى، نياتهم منضبطة وفق مراد الله تبارك وتعالى، أقوالهم منضبطة وفق مراد الله سبحانه وتعالى، وكذلك أفعالهم، فيرزق الإنسان الاستقامة على أمر الله تبارك وتعالى والسير على دينه، لا يروغ ذات اليمين وذات الشمال، بل هدفه وغايته ومقصده هو رضوان الله تبارك وتعالى، وإن ألم ببعض الذنوب أحيانًا، لكن أموره منضبطة بالسير على منهج الله تبارك وتعالى، ليس عنده روغان، وليس

عنده رغبة في التملص من الأحكام الشرعية، كلا هذا غير موجود، هدفه واضح، نيته سليمة، أقواله سليمة، أفعاله سليمة، متجه إلى الله تبارك وتعالى، همه رضوان الله تبارك وتعالى.. هذه هي أعظم الكرامات؛ أن يوفق الله تبارك وتعالى عبده المؤمن لإخلاص النية، ويوفق الله سبحانه وتعالى عبده المؤمن للقول الحسن والفعل الحسن.

فالاستقامة على أمر الله تبارك وتعالى توفيق من الله، ومنحة من الله، وهبة من الله، الله تبارك وتعالى هو سبحانه وتعالى الذي ييسر لعباده سبل الخير، وطرق الهداية، وهو سبحانه وتعالى الذي يثبت عباده المؤمنين على الإيمان سبحانه وتعالى.

فالأمر من الله تبارك وتعالى، البداية من الإنسان أن يسلك الإنسان سبيل الحق وسبيل الهداية وسبيل الخير وسبيل الصلاح، والله سبحانه وتعالى يوفقه بالهداية؛ لذلك قال الله سبحانه وتعالى: ﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ﴾ [محمد] بدأ الإنسان بالسير إلى الله تبارك وتعالى، فأكرمه الله تبارك وتعالى بأن أصلح نيته، وأصلح أعماله، وأصلح أقواله، فصار مباركًا، مبارك النية، ومبارك السلوك، مبارك القول، ومبارك الفعل، والبركة من الله تبارك وتعالى.

الذين استقاموا على أمر الله تبارك وتعالى لهم بشرى من الله تبارك وتعالى، قال الله سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ [فصلت] أخبر الله سبحانه وتعالى عن هؤلاء الذين آمنوا بالله واستقاموا على منهج الله تبارك وتعالى أن الملائكة تتنزل عليهم -يعني عند الموت-، يقولون لهم لا تخافوا ولا تحزنوا.

الخوف يكون من الأمر المستقبلي، والحزن يكون على أمر فائت، فالملائكة تتنزل عليهم: لا تخافوا مما أنتم مقدمون عليه، ولا تحزنوا على ما تركتموه وخلفتموه في الدنيا،

فيؤمّنوهم على مستقبلهم في الآخرة "لا تخافوا"، ويؤمّنوهم على ما تركوه في الدنيا من الذرية وغيرها..

﴿تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ لمن هذا الكلام؟

هذا للمستقيمين على أمر الله، لذا قال الله سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ﴾، وقال الله سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [الأحقاف]، في تلك الآية قال الله سبحانه وتعالى أن الملائكة تتنزل عليهم ألا تخافوا ولا تحزنوا، هنا قال الله سبحانه وتعالى فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون، أخبر الله سبحانه وتعالى ألّا خوف عليهم فهم في أمن، ولا هم يحزنون ليس في قلوبهم حزن على ما تركوه وخلّفوه، وأخبر الله سبحانه وتعالى عن هؤلاء الذين آمنوا بالله واستقاموا على أمره، قال: ﴿أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأحقاف]، وما هو الذي كانوا يعملونه؟ الإيمان بالله، والاستقامة على مراد الله تبارك وتعالى.

إيمانٌ واستقامة.. وما هي الاستقامة؟ الاستقامة هي فعل الطاعة، واجتناب المعصية، وألّا يروغ روغان الثعلب، ولا يتملص من الأحكام وينحرف عنها.

فمن رزقه الله الاستقامة، رزقه خير الدنيا والآخرة؛ لذلك الاستقامة عين الكرامة، فهي من أعظم ما يؤيد الله تبارك وتعالى به عباده المؤمنين، التزام أمر الله تبارك وتعالى والسير على دينه.

ولكن هؤلاء أهل الاستقامة المؤمنون، في سيرهم إلى الله تبارك وتعالى يقترفون الذنوب والخطايا، ويتوبون منها، لا يُصرون على فعلها، ولا يستكبرون في اقترافها، ولكنهم يذنبون ويتوبون، ويستغفرون، ويلتزمون الاستقامة، العودة إلى طريق الله تبارك وتعالى.

عن ابن عباس –رضي الله عنهما–، عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم –وانتبه لهذا الحديث اللطيف–، قال النبي –صلى الله عليه وآله وسلم–: ((ما من عبد مؤمن إلا وله ذنب يعتاده الفينة بعد الفينة..)) مرة بعد مرة، يخبر النبي –صلى الله عليه وآله وسلم– أن ما من عبد مؤمن إلا وله ذنب يقترفه بين الحين والآخر، فقال –عليه الصلاة والسلام–: ((ما من عبد مؤمن إلا وله ذنب يعتاده الفينة بعد الفينة، أو ذنب هو مقيم عليه لا يفارقه حتى يُفارق)). أي يستمر على هذا الذنب حتى يأتيه الموت.

فأخبر النبي ﷺ أن من المؤمنين من له ذنب يعتاده حينًا وحينًا، أو ذنب يُكثر الوقوع فيه، يقع فيه مرة بعد مرة، مرات كثيرة، فقال عليه الصلاة والسلام: ((ما من عبد مؤمن إلا وله ذنب يعتاده الفينة بعد الفينة، أو ذنب هو مقيم عليه لا يفارقه حتى يُفارق –يعني يموت–، إن المؤمن خُلق مُفَتَّنًا، توّابًا، نَسِيًّا، إذا ذُكِّرَ ذكَرَ)).

فأخبر النبي ﷺ أن المؤمن تصيبه الفتنة باقتراف الذنوب والخطايا، ولكن أخبر النبي –صلى الله عليه وآله وسلم– أن المؤمن توّاب (توّاب: كثير التوبة)، مهنته التوبة، عمله التوبة، توّاب كثير التوبة إلى الله تبارك وتعالى، فهو مُفتّن توّاب نَسِيّ (ينسى كثيرًا)، ولكن إذا ذُكِّر ذَكَر وعاد إلى الله تبارك وتعالى، واستغفر وأناب، وازداد قربًا إلى الله تبارك وتعالى بتوبته، وازداد رفعة عند الله تبارك وتعالى بتوبته.

هذا الحديث الذي رواه ابن عباس عن النبي –صلى الله عليه وآله وسلم– قال: : ((ما من عبد مؤمن إلا وله ذنب يعتاده الفينة بعد الفينة، أو ذنب هو مقيم عليه لا يفارقه حتى يُفارق –يعني يموت–، إن المؤمن خُلق مُفَتَّنًا، توّابًا، نَسِيًّا، إذا ذُكِّرَ ذكَرَ)). أخرجه الطبراني في الكبير، وهو حديث صحيح.

القصد: أن الإنسان قد يكون على الاستقامة، وسائر على أمر الله تبارك وتعالى، ويُذنب ويخطئ ويُقصّر، ولكنه توّاب رجّاع إلى الله تبارك وتعالى، إذا ذُكِّر ذَكَر، واستغفر، وأناب، وارتفع عند الله تبارك وتعالى بتوبته درجات..

أعظم الكرامة الاستقامة على أمر الله، فالعبد يسأل الله تبارك وتعالى باستمرار أن يرزقه الاستقامة على أمره، وهذه من الأدعية العظيمة التي في الفاتحة، يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ وفِّقنا للاستقامة على أمرك، السير على الصراط المستقيم أي الاستقامة على أمر الله تبارك وتعالى.

فالمؤمن كثيرًا ما يسأل الله تبارك وتعالى أن يوفقه للاستقامة على أمره، لا يغتر بطاعته، إذا اغتر بطاعته هلك، واذا أُعجِب بعبادته هلك، وإذا توكل على الله نجا في الدنيا والآخرة.

نسأل الله تبارك وتعالى أن يرزقنا الاستقامة على دينه حتى نلقاه، آمين.

الخاطرة الثامنة:
-الملجأ الآمن-

اللهم لك الحمد كما ينبغي لجلال وجهك وعظيم سلطانك، اللهم صلِّ على محمد وعلى آل محمد، كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم، وبارك على محمد وعلى آل محمد، كما باركت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم في العالمين، إنك حميد مجيد، أما بعد:

الحياة الدنيا مليئة بالأخطار، ومليئة بالمكاره، وفيها كثير من الشر، والإنسان بحاجة إلى حصن حصين يلجأ إليه عند الخوف وعند المكروه، إذا لجأ إلى هذا الحصن واحتمى به كُفي شر الأشرار، وكُفي الأخطار والمهالك..

الملجأ الآمن في هذه الحياة هو التوكل على الله تبارك وتعالى، المؤمن المتوكل على الله تبارك وتعالى في ملجأ آمن، قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمْرِهِۦ ۚ قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَىْءٍ قَدْرًا﴾ [الطلاق]، أخبر الله سبحانه وتعالى أن المتوكلين على الله يكفيهم الله تبارك وتعالى، يكفيهم من كل شيء.

وأخبر سبحانه وتعالى عن نفسه جل شأنه أنه بالغ أمره، يفعل ما يشاء، لا مُعارض له، ولا مُعاند له، ولا نِدّ له تبارك وتعالى، وأنه سبحانه قد قدَّر كل شيء تقديرًا.

ومن يتوكل على الله فهو حسبه (كافيه)، إن الله بالغ أمره يفعل ما يشاء، قد جعل الله لكل شيء قدْرًا فلا يخرج شيء عن قدر الله تبارك وتعالى.. الملجأ الآمن التوكل على الله.

والتوكل شأنه عظيم في الدين، قال ابن القيم -رحمه الله-: "التوكل نصف الدين، والنصف الثاني الإنابة، فإن الدين استعانة وعبادة". ﴿إياك نعبد وإياك نستعين﴾. فالتوكل هو الاستعانة، والإنابة هي العبادة.

ما هو التوكل؟ التوكل هو صدق اعتماد القلب على الله عز وجل في استجلاب المصالح، ودفع المضار، من أمور الدنيا والآخرة.

التوكل حالة مركبة، مجموعة من أمور، لا تتم حقيقة التوكل إلا بها:

الأمر الأول: معرفة الله تبارك وتعالى، ومعرفة صفاته، وقدرته تبارك وتعالى، وكفايته، وقيوميته، وانتهاء الأمور إلى علمه سبحانه وتعالى، وصدورها عن مشيئته وقدرته. هذه المعرفة أول درجة يضع بها العبد قدمه في مقام التوكل.

الأمر الثاني: إثبات الأسباب والمسببات، فمن نفى الأسباب والمسببات فتوكله مغلوط مدخول.

الأمر الثالث في تحقيق التوكل: رسوخ القلب في مقام توحيد التوكل، فإنه لا يستقيم توكل العبد حتى يصح التوحيد، بل حقيقة التوكل توحيد القلب، فما دامت علائق الشرك موجودة في القلب فالتوكل معلول، فيه علة الشرك.

الأمر الرابع: وهو اعتماد القلب على الله، واستناده إليه، وسكونه إليه، بحيث لا يبقى فيه اضطراب، ولا يخالجه شك.

الأمر الخامس: حسن الظن بالله تبارك وتعالى، فعلى قدر حسن الظن بالله تبارك وتعالى يكون التوكل.

الأمر السادس: استسلام القلب لله تبارك وتعالى.

هذه ستة أمور التوكل مركب منها: معرفة الله تبارك وتعالى، إثبات الأسباب، التوحيد، اعتماد القلب على الله تبارك وتعالى، حسن الظن بالله تبارك وتعالى، استسلام القلب لله تبارك وتعالى.. إذا اجتمعت هذه الأمور تحقق التوكل، فحقيقة التوكل من هذه الأمور الستة.

إضافة إلى أمر مهم جدًا: وهو التفويض لله تبارك وتعالى، وإلقاء الأمور كلها إلى الله تبارك وتعالى، وإنزالها به طلبًا واختيارًا، لا كرهًا واضطرارًا.

لماذا نتوكل؟ لماذا التوكل على الله..؟

نتوكل على الله لأن التوكل شرط الإيمان، قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [المائدة]، من لا توكل له لا إيمان له، فالتوكل شرط الإيمان.

ثم نتوكل على الله تبارك وتعالى لأن الله سبحانه وتعالى يحب المتوكلين، قال سبحانه وتعالى: ﴿فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾ [آل عمران] تريد أن تكون محبوبًا لله تبارك وتعالى عليك بالتوكل، على قدر توكلك على الله تبارك وتعالى تكون محبة الله لك ومنزلتك عند الله تبارك وتعالى.

والخلق في التوكل على الله أصناف:

قال ابن القيم –رحمه الله– في أصناف المتوكلين: الصنف الأول: أولياء الله تبارك وتعالى وخاصته يتوكلون عليه في الإيمان، ونصرة دينه، وإعلاء كلمته، وجهاد أعدائه، وفي محابه وتنفيذ أوامره.

هذه الدرجة الأولى العالية من المتوكلين على الله تبارك وتعالى، الخُلّص من عباده، الذين يتوكلون على الله في الإيمان به، ويتوكلون على الله في نصرة دينه، ويتوكلون على الله في جهاد أعدائه، وإقامة شريعته. هذه الدرجة الأولى من درجات التوكل، وهم الصنف الأول من المتوكلين.

ودون هؤلاء: من يتوكل على الله في استقامته في نفسه، وحفظ حاله مع الله، فيتوكل على الله تبارك وتعالى في إقامة الصلاة، يتوكل على الله تبارك وتعالى في التخلي عن الصفات المذمومة، يتوكل على الله تبارك وتعالى في حسن معاملة الخلق.. يعني في حاله مع الله تبارك

وتعالى، لا يتوكل على الله في في إقامة دينه ونصرة شريعته، لا، هذا الدرجة الثانية يتوكل على الله تبارك وتعالى في استقامة نفسه مع الله تبارك وتعالى.

المرتبة الثالثة -وهم دون الذين قبلها-: من يتوكل على الله تبارك وتعالى في معلوم يناله من رزق، أو عافية، أو نصر على الأعداء، أو زوجة، أو ولد، أو نحو ذلك، فيتوكل على الله تبارك وتعالى في مراده من الدنيا، ويستحضر التوكل على الله تبارك وتعالى في أمور دنياه. هذه المرتبة الثالثة.

وهذا أمر طيب ومثاب عليه، لكنه ليس كمن قبله ممن توكل على الله تبارك وتعالى في عبادة الله تبارك وتعالى، أو من توكل على الله في إقامة دينه وشرعه.

الصنف الرابع من المتوكلين -لا حول وقوة إلا بالله-: من يتوكل على الله تبارك وتعالى في حصول الآثام والفواحش -والعياذ بالله-، هذا خلق من خلق الله تبارك وتعالى، يتوكلون عليه في الجرائم والمنكرات، ولهم صدق توكل، يتوكلون على الله ويعيثون في الأرض فسادًا -ولا حول وقوة إلا بالله-.

أفضل التوكل:

التوكل في الواجب، الواجب لله تبارك وتعالى، والواجب تجاه الخلق، والواجب تجاه النفس.

قال ابن القيم -رحمه الله-: "وأوسع التوكل وأنفعه التوكل في مصلحة الدين، أو في دفع مفسدة دينية، وهو توكل الأنبياء في إقامة دين الله، ودفع فساد المفسدين في الأرض، وهذا توكل ورثتهم".

أعظم التوكل هو أن يتوكل على الله تبارك وتعالى في إقامة دينه، ونصرة شريعته، وهذا توكل الأنبياء -صلوات الله وسلامه عليهم-.

وتوكل الأنبياء -صلوات الله وسلامه عليهم- أعظم التوكل، ذكر الله سبحانه وتعالى في كتابه العزيز عن نبيه هود عليه السلام، وقصته مع قومه، وأخبر الله سبحانه وتعالى عن توكل هود عليه السلام، قال الله سبحانه وتعالى: ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۚ قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ۖ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ ۝ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ۝ وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ ۝ قَالُوا يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ إِن نَّقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ ۗ قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ۝ مِن دُونِهِ ۖ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ۝ إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُم ۚ مَّا مِن دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا ۚ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [هود].

فأخبر الله سبحانه وتعالى عن قصة هود عليه السلام، وكيف كذبه قومه، وكيف تحداهم عليه السلام؛ إن كنتم في شك مما أقول فإني أتحداكم أن تحيقون بي شرًّا، أو توقعون بي مكروهًا، من دونه فكيدوني جميعًا ثم لا تنظرون.. الآن! إني توكلت على الله ربي وربكم ما من دابة إلا هو آخذ بناصيتها إن ربي على صراط مستقيم.

قال الله تبارك وتعالى لمحمد -صلى الله عليه وآله وسلم-: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ﴾ [الفرقان]، والنبي -صلى الله عليه وآله وسلم- أفضل المتوكلين وخير المتوكلين -صلى الله عليه وآله وسلم-.

ومن دعائه لله تبارك وتعالى وتضرعه له والتجائه إليه، هذا الدعاء العظيم والابتهال الجليل: أخرج الإمام مسلم عن ابن عباس -رضي الله عنهما-: أن رسول الله -صلى الله عليه وآله وسلم- كان يقول: ((اللهم لك أسلمت، وبك آمنت، وعليك توكلت، وإليك أنبت، وبك خاصمت، اللهم إني أعوذ بعزتك لا إله إلا أنت أن تُضلني، أنت الحي الذي

لا يموت، والجن والإنس يموتون)). ومقامات النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- في التوكل معروفة معلومة في الكتاب والسنة.

أريد أن أنبه لأمر مهم جدًا:

وهو اشتباه علم التوكل بحال التوكل، فكثير من الناس يعرف التوكل ويعرف حقيقته وتفاصيله، فيظن أنه متوكل وليس من أهل التوكل، فحال التوكل أمر آخر من وراء العلم به، فهناك فرق بين أن يعلم الإنسان التوكل وأحكامه وأحواله، وأن يكون فعلًا هو من المتوكلين.. هذا الأمر المهم..

نعم أعرف ما هو التوكل، وفضيلة التوكل، والسبيل إلى التوكل، وكيف أكون من المتوكلين.. نعم أعرف هذا، لكن هل أنا فعلًا متوكل على الله تبارك وتعالى؟ هل حالي مع الله تبارك وتعالى قائم على التوكل؟ هذا الأمر الذي لا بد من الالتفات إليه، والانتباه له، وهو الفرق بين العلم بالتوكل والحال في التوكل.

نسأل الله تبارك وتعالى أن يجعلنا من المتوكلين عليه، آمين.

الخاطرة التاسعة
-مُطمئنٌ ومُطمئنة-

الحمد لله رب العالمين، اللهم لك الحمد كما ينبغي لجلال وجهك وعظيم سلطانك، اللهم صلِّ على محمد وعلى آل محمد، كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم، وبارك على محمد وآل محمد، كما باركت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم في العالمين، إنك حميد مجيد. أما بعد:

الحياة مليئة بالاضطراب، مليئة بالحركة وبالصخب، وبالقلق وبالتغيرات، مضطربة متغيرة، قلقة، كثيرة الحركة؛ والمطمئن هو قلب المؤمن، قال الله: ﴿أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ [الرعد].

والمطمئنة هي نفس المؤمن، قال الله: ﴿يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ۝ ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً﴾ [الفجر].

فالمطمئن هو قلب المؤمن، والمطمئنة هي نفس المؤمن، المؤمن مطمئنٌ قلبًا ونفسًا، ولا طمأنينة بدون إيمان، قال الله تعالى: ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾ [النحل].

الطمأنينة: هي سكون القلب إلى الشيء، وعدم اضطرابه وقلقه.

لكن، الطمأنينة بماذا؟ والطمأنينة إلى ماذا؟

الطمأنينة إلى خبر الله، والطمأنينة إلى حكم الله، والطمأنينة إلى قدر الله.

لا يكون العبد مطمئنًا حتى تجتمع فيه هذه الثلاث: الطمأنينة إلى خبر الله، والطمأنينة إلى حكم الله، والطمأنينة إلى قدر الله.

الأمر الأول: الطمأنينة إلى خبر الله: قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [الأنعام].

قال قتادة: صدقًا فيما قال، وعدلًا فيما حكَم: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾، ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا﴾ [النساء].

عن فُضالة بن عبيد –رضي الله عنه–، أن رسول الله ﷺ قال: ((ثلاثةٌ لا يسأل عنهم: رجل نازع الله رداءه، فإن رداءه الكبر وإزاره عز، ورجلٌ في شكٍ من أمر الله، والقَنوط من رحمته)). رواه الطبراني، وهو حديثٌ صحيح.

ومن أخبار الله تبارك وتعالى: الوعد والوعيد في الدنيا والآخرة؛ الوعد لأوليائه، والوعيد لأعدائه، الوعد بالخير، والوعيد بالعذاب، في الدنيا والآخرة؛، قال الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا﴾ [النساء].

الأمر الأول: الطمأنينة إلى خبر الله تبارك وتعالى، ومنه الوعد والوعيد.

الأمر الآخر: الطمأنينة إلى حكم الله، إلى أمر الله الشرعي، قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَاللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ [الرعد].

الله سبحانه وتعالى يحكم ولا معقب لحكمه، لا أحد يحكم بعد الله تبارك وتعالى، لا حكم بعد حكم الله تبارك وتعالى، وقال الله تبارك وتعالى: ﴿فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِالدِّينِ ۞ أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ﴾ [التين].

والذي يحكم بحكم الله، هم الرجال أهل العلم؛ يجتهدون في معرفة حكم الله تبارك وتعالى، ثم يقضون به ويحكمون به، وهذا أمرٌ مهم؛ أن الرجال يجتهدون في حكم الله، لإسقاطه على الواقع، يجتهدون في معرفة حكم الله، ليقضوا به في الناس.

لأن مما أخذ الخوارج على علي بن أبي طالب -رضي الله عنه-، عندما قَبِل بمحكمةٍ مشتركة بينه وبين معاوية -رضي الله عنه-، أخذ عليه الخوارج أنه حكَّم الرجال في أمر الله، والله يقول: ﴿إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾ [يوسف].

أخرج الإمام أحمد، عن عبد الله بن شداد، يقُص على عائشة -رضي الله عنها-، قال: "فإن عليًا لما كاتَبَ معاوية، وحكَّم الحَكَمين -رضي معاوية وعلي رضي الله عنهما في أن يحكم في تلك الدماء محكمة مشتركة من الطرفين، يحكم فيها رجلان اثنان- قال: فإن عليًا لما كاتب معاوية وحكَّم الحَكَمين، خرج عليه ثمانية آلافٍ من قُرَّاء الناس -الذين خرجوا على علي رضي الله عنه لم يكونوا من الفجار أو من الفساق أو أهل المعاصي، بل قال: خرج عليه ثمانية آلافٍ من قراء الناس؛ يقرؤون القرآن ويقومون به الليل -يقرؤون القرآن ولكن لا يفقهونه-، قال: خرج عليه ثمانية آلافٍ من قراء الناس، فنزلوا بأرض يقال لها حروراء، من جانب الكوفة، وإنهم عتبوا عليه -على عليّ رضي الله عنه-، فقالوا: انسلخت من قميصٍ ألْبَسَكَهُ الله تعالى، واسمٍ سماك الله تعالى به، ثم انطلقتَ فحكّمتَ في دين الله، فلا حكم إلا لله تعالى، فلما أن بلغ عليًا ما عتبوا عليه، وفارقوه عليه، فأمر مؤذنًا فأذن ألا يدخل على أمير المؤمنين إلا رجلٌ قد حمل القرآن، فلما أن امتلئت الدار من قراء الناس، دعا بمصحفٍ إمامٍ عظيم، فوضعه بين يديه، فجعل يصكه بيده ويقول: أيها المصحف، حدث الناس، فناداه الناس فقالوا: يا أمير المؤمنين، ما تسأل عنه! إنما هو مدادٌ في ورق، ونحن نتكلم بما روينا منه، فماذا تريد؟.

قال: "أصحابكم هؤلاء الذين خرجوا بيني وبينهم كتاب الله عز وجل، يقول الله تعالى في كتابه في امرأة ورجل: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُوا حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَا إِن يُرِيدَا إِصْلَاحًا يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا﴾ [النساء]، فأمة محمدٍ ﷺ أعظم دمًا وحرمةً من امرأةٍ ورجل".

وذكر الإمام النسائي في كتابه [خصائص علي رضي الله عنه] مناظرة ابن عباسٍ -رضي الله عنه- للخوارج، فقالوا -أي الخوارج -: ما شأن الرجال والحكم؟، فأجاب عنهم

ابن عباس -رضي الله عنه-، عندما ناظرهم فقال: أما قولكم حكّم الرجال في أمر الله؛ فإني أقرأ عليكم من كتاب الله، أن قد صيَّر الله حكمه إلى الرجال في ثمن ربع درهم، فأمر الله تبارك وتعالى أن يحكموا فيه، أرأيتم قول الله تبارك وتعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنتُمْ حُرُمٌ وَمَن قَتَلَهُ مِنكُم مُّتَعَمِّدًا فَجَزَاءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ﴾ [المائدة]، وكان من حكم الرجال.. أنشدكم بالله، أحُكم الرجال في إصلاح ذات البين وحقن دمائهم أفضل، أو في أرنب؟ قالوا: بلى، بل هذا أفضل.

القصد: الطمأنينة إلى حكم الله تبارك وتعالى، والانقياد لأمر الله تبارك وتعالى، ولشرعه، ولقضائه، ولما أمر به سبحانه وتعالى، وعدم التملُّص عنه ذات اليمين وذات اليسار؛ هذه سيما المؤمنين: الالتزام بحكم الله تبارك وتعالى، واتِباعه، وسيما المنافقين: التملص والهروب من حكم الله تبارك وتعالى.

قال سبحانه وتعالى: ﴿وَيَقُولُونَ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِنْهُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ ۝ وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ مُعْرِضُونَ ۝ وَإِنْ يَكُنْ لَهُمُ الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ﴾ [أي: منقادين سلسين] ﴿أَفِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَمِ ارْتَابُوا أَمْ يَخَافُونَ أَنْ يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ بَلْ أُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ۝ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ۝ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ [النور].

هذا الطمأنينة إلى حكم الله تبارك وتعالى، وإلى قضاء الله تبارك وتعالى الشرعي.

الأمر الثالث: الطمأنينة إلى قدر الله، الإيمان بالقضاء والقدر.

عن أبي حفصة قال: قال عبادة بن الصامت لابنه: يا بني، إنك لن تجد طعم حقيقة الإيمان حتى تعلم أن ما أصابك لم يكن ليخطئك، وما أخطأك لم يكن ليصيبك، سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: ((إن أول ما خلق الله القلم، فقال له: اكتب. قال: ربِّ، وماذا أكتب؟

قال: اكتب مقادير كل شيء حتى تقوم الساعة))، يا بني، إني سمعت رسول الله ﷺ يقول: "من مات على غير هذا، فليس مني". [رواه أبو داوود]

وعن أبي الدرداء -رضي الله عنه-، عن النبي ﷺ قال: ((لكل شيءٍ حقيقة، وما بلغ عبدٌ حقيقة الإيمان، حتى يعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه، وما أخطأه لم يكن ليصيبه)). رواه أحمد في المسند، وهو حديث حسن، بل هو صحيح لغيره.

الطمأنينة في حكم الله الشرعي -سواء كانت خبرًا أو أمرًا- وحكم الله القدري، يوصلك إلى اليقين.

من اطمئن إلى أمر الله، واطمئن إلى خبر الله، واطمئن إلى قدر الله، فهو من الموقنين.

والطريق إلى الطمأنينة، ذكره الله تبارك وتعالى، وهو الذكر، قال سبحانه وتعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوب﴾.

وأفضل الذكر وأعلى الذكر هو القرآن العظيم، قال الله سبحانه وتعالى: ﴿وَهَذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَاهُ أَفَأَنتُمْ لَهُ مُنكِرُونَ﴾.

فأعظم طريق إلى الطمأنينة، هو ذكر الله تبارك وتعالى، وأفضل الذكر هو القرآن العظيم، طريق الطمأنينة أفضلها وأعظمها هو كتاب الله سبحانه وتعالى.

والنفس المطمئنة في الدنيا، مطمئنةٌ عند الموت، مطمئنةٌ يوم الفزع، مطمئنةٌ في الآخرة، قال الله: ﴿يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّة ۝ ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً﴾، راضيةً بما أُوتيَت، مرضيةً عند الله تبارك وتعالى.

وقال ابن كثير رحمه الله: "راضيةً أي: في نفسها، مرضيةً أي: قد رَضِيت عن الله، ورضي عنها وأرضاها".

نسأل الله تبارك وتعالى أن يجعل نفوسنا مطمئنة، وقلوبنا مطمئنة، وأن يرزقنا حسن الختام.. آمين.

الخاطرة العاشرة

-المتوسمون-

الحمد لله رب العالمين، اللهم لك الحمد كما ينبغي لجلال وجهك وعظيم سلطانك، اللهم صلِ على محمد وعلى آل محمد، كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم، وبارك على محمد وعلى آل محمد، كما باركت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم في العالمين، إنك حميد مجيد، أما بعد:

قال الله تبارك وتعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِلْمُتَوَسِّمِينَ﴾، قال مجاهد -رحمه الله-: المتوسمين: المتفرسين. (أهل الفراسة).

والفراسة: هي التعرف بدلالات الظاهر، على حقائق الباطن.

من خلال الظاهر، يعرف باطن الأمر.. وهي أنواع:

فراسة لظاهر البدن على باطنه (فراسة فقط في البدن)، من خلال ظاهره يعرف ما في باطنه، وهذه فراسة الأطباء، وتكسب بالمعرفة؛ يعرف من خلال ظاهر البدن، ما هي علله الباطنة. هذا الأمر الأول، الفراسة بظاهر البدن على باطنه.

الثانية: الفراسة بظاهر الأحوال على خفاياها.

الأول في الأبدان، والثاني في الأحوال، ليس في الأبدان، وإنما في الأحوال والأحداث وأمور الحياة.

قال ابن القيم -رحمه الله- عن ابن تيمية: "أنه أخبر أصحابه بدخول التتار الشام سنة ٦٩٩ هـ، وأن جيوش المسلمين تُكسر، وأن دمشق لا يكون بها قتلٌ عام ولا سبيٌ عام، وأن كلَبَ الجيش وحِدتَه في الأموال؛ وهذا قبل أن يهم التتار بالحركة".

وقال أيضًا عن ابن تيمية: "أخبر الناس والأمراء سنة ٧٠٢ هـ، لما تحرك التتار وقصدوا الشام، أن الدائرة والهزيمة عليهم -أي أخبر الناس والأمراء، أن الدائرة والهزيمة على التتار-، وأن الظفر والنصر للمسلمين، وأقسم على ذلك أكثر من سبعين يمينًا؛ فيقال له: قل إن شاء الله. فيقول إن شاء الله تحقيقًا لا تعليقًا".

قال ابن القيم: "وسمعته يقول ذلك -أي ابن تيمية-، فلما أكثروا عليّ، قلت: لا تُكثروا علي -هذا كلام ابن تيمية-، كتب الله تعالى في اللوح المحفوظ أنهم مهزومون في هذه الكرّة، وأن النصر لجيوش الإسلام".

قال ابن القيم: "وأخبرني -أي ابن تيمية- غير مرةٍ بأمور باطنةٍ تختص بي مما عزمت عليه ولم ينطقه لساني".

هذه الفراسة بظاهر الأحوال على خفاياها، وتكون بالمعرفة، بمعرفة الأمور وتصريف الأحوال، وبمعرفة سنن الله تبارك وتعالى، وبمعرفة أحوال وأخلاق الناس.

وإلا كيف عرف ابن تيمية -رحمه الله- هذه الأمور؟! من معرفته بأحوال الأمم، وبسنن الله تبارك وتعالى، ولمعرفته بابن القيم تلميذه؛ يعرفه ويعرف أحواله ومداخله، فكان يحدثه بما وقع في نفسه، من غير أن يتكلم ابن القيم، لمعرفة ابن تيمية -رحمه الله- بتلميذه معرفةً جيدة.

إذن الأمر الثاني من الفراسة: الفراسة بظاهر الأحوال على خفاياها.

الفراسة الثالثة: الفراسة بظاهر الخَلق على حقيقة الخُلُق؛ ينظر في وجه الرجل، فيعرف من وجهه أنه صادق، وأنه تقي، أو أنه فاجر، أو أنه ماكر، أو أنه صاحب حيلة، بالتأمل في ظاهره؛ وهذه الفراسة للمؤمن وللكافر، وللطائع والعاصي، وتكتسب بالدُربة والخبرة، وهي مما يُتَعلم.. أن يتعلم بظاهر الخَلق ما يدل على حقيقة الخُلق.

الفراسة الرابعة: فراسة بظاهر الخُلق على حقيقة القصد، وهذه أخص؛ لأنها دلالة على الأخلاق، وليست على الأبدان.

الأول: كان معرفة باطن البدن من ظاهره، يتأمل في ظاهر البدن، فيعرف ما في باطنه.

هذه الأخيرة: أن يرى ظاهر الخُلق فيعرف حقيقة الخُلق؛ بمعنى أن شخص قد يتزين بأخلاق الصالحين، ويتخلق بخُلق أهل التقوى، وهو ليس كذلك، وهو فاجر، أو هو فاسق، أو هو جاسوس –والعياذ بالله–؛ وظاهر أخلاقه الصلاح والخير، وظاهر أخلاقه الصدق والأمانة، ولكن حقيقة خُلقه هي الخيانة والمكر والعداء.

فالفراسة بظاهر الخُلق؛ ينظر في ظاهر هذه الأخلاق، فيعرف أنها ليست أخلاق حقيقية متمكنة من قلب صاحبها، وإنما صاحبها مُدّعٍ، وأنه يخفي غير ذلك. هذه فراسة بظاهر الخُلق على حقيقة القصد من هذا الخُلق.

هذه أربعة من أنواع الفراسة: الفراسة بظاهر البدن على باطنه، الفراسة بظاهر الأحوال على خفاياها، الفراسة بظاهر الخَلق على حقيقة الخُلُق، والفراسة بظاهر الخُلق على حقيقة القصد.

النجاة للعبد..

أن يتفرس العبد في نفسه، وأن يتأمل في أخلاقه، ومن صحت فراسته في نفسه، صدقت فراسته في غيره..

أولى بالعبد أن يهتم بالفراسة في نفسه، ويعرف خفاياها وحقيقة أخلاقها، ويعرف طريق الهداية وطريق الضلال، وسبل السلوك للحق، ونيل رضوان الله تبارك وتعالى.

ويتفرس في أخلاقه، هل هي أخلاق حقيقية؟ ويتفرس في أعمال قلبه، هل هي أعمال مخلَصة لله تبارك وتعالى؟

يتفرس في عيوبه، وفي صفاته، وفي أحواله، وفي قصده..

النجاة للعبد: أن يتفرس في نفسه، وأولى له أن يتفرس في نفسه، وفي صفاته، وأخلاقه، وفي مكنونات نفسه؛ أولى له وأنفع، من أن يتفرس في غيره.

الفراسة في النفس، ومعرفة ما لها وما عليها؛ سبيل النجاة في الدنيا وفي الأخرة.

أما التفرس في أخلاق الناس: فهي قد تكون سبيل النجاة، في الدنيا من بعض المكروه، ولكن النجاة الحقيقية هي النجاة عند الله تبارك وتعالى، والفوز لديه.

الطريق إلى الفراسة الصادقة:

قال العلماء: "من غض بصره عن المحارم، وأمسك نفسه عن الشهوات، وعمَّر باطنه بالمراقبة، وظاهره باتباع السنة، وتعود أكل الحلال؛ لم تخطئ فراستُه".

الفراسة في تقوى الله تبارك وتعالى، ومن اتقى الله، جعل الله لهُ نور، فيتفرس في نفسه وفي خلق الله.

نسأل الله تبارك وتعالى أن يجعلنا من المتوسمين في أنفسهم، المتفرسين في أخلاقهم وعيوبهم، السالكين إلى الله تبارك وتعالى سُبل النجاة.. آمين.

فهرس